طه الشريف

بطاقة هُوية.. لنازحٍ مجهول

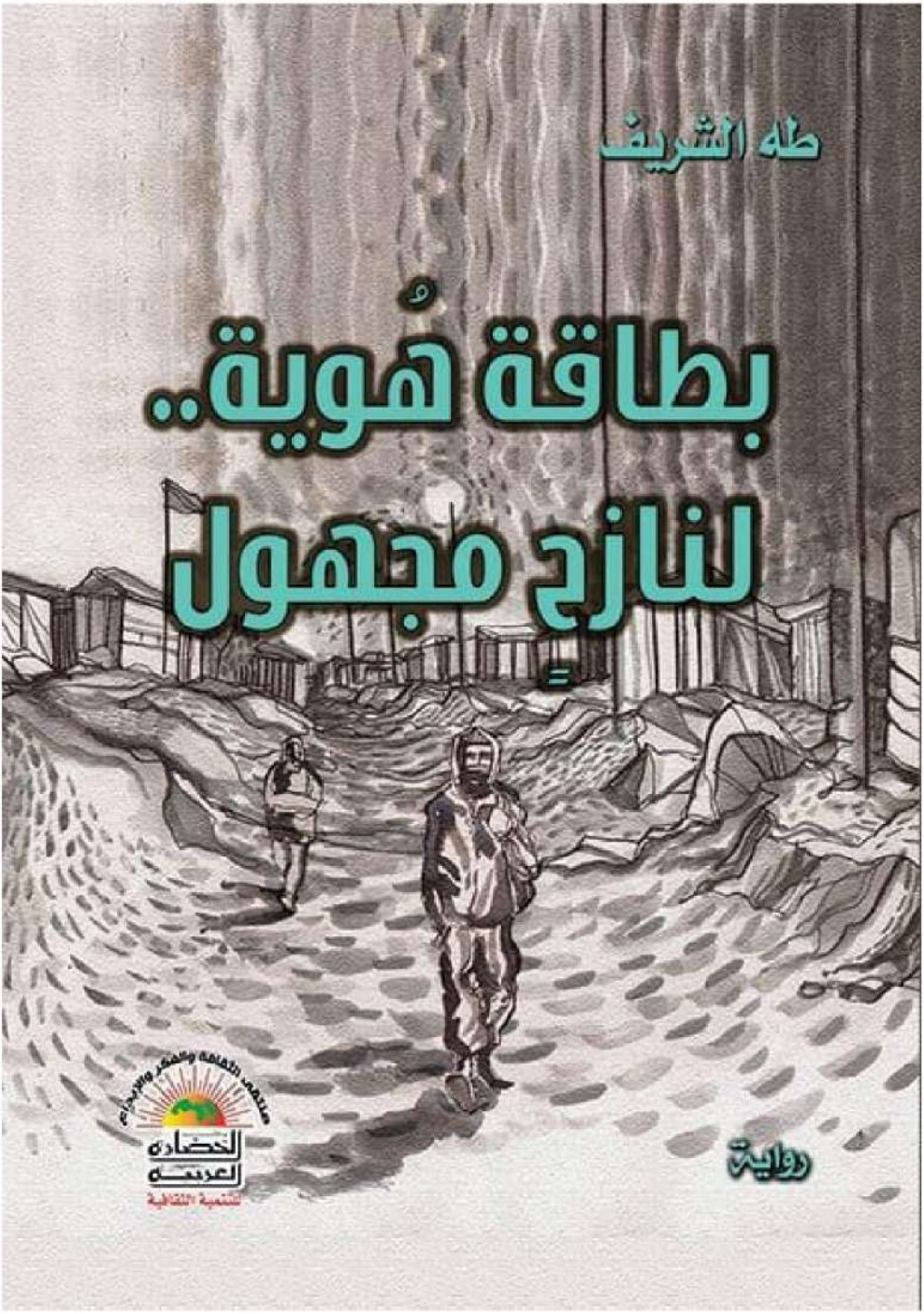

رواية

ملتقى الثقافة والفكر والإبداع
الحضارة العربية
للتنمية الثقافية

بطاقة هُوية لنازحٍ مجهول

ملتقى الثقافة والفكر والإبداع
الحضارة العربية
للتنمية الثقافية

تأسست 1 يناير 1990م
ش. ذ. م. م: 2022

مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، والإسهام بدور فاعل فى إثراء الثقافة العربية، ونشر الكتاب العربي.

ينطلق المركز في ممارسة دوره في إطار من حرية الفكر والإبداع والبحث العلمي سعيًا نحو بناء مجتمع يؤمن بالتعدد والتنوع والتسامح والانفتاح على كل الرؤى والأفكار والاجتهادات المختلفة، ومواجهة التحديات التي تعيشها الأمة، وبناء وحدتها، في إطار المشروع الحضاري العربي الإسلامي المُستقِل.

يسعى المركز إلى التفاعل مع المثقفين، وتشجيع انتاج المفكرين والباحثين والكُتّاب العرب، والتعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات في مصر والوطن العربي والعالم.

يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق رؤيته وأهدافه.

الآراء الواردة في ما يصدر عن المركز تُعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

علي عبد الحميد علي

للتواصل

مركز "الحضارة العربية"

Mo&Whats : 01095770008 - 01115790009 - 01223050005

E-mail : hadaraa1990@gmail.com - hadaraa2023@gmwail.com

F: الحضارة العربية للتنمية الثقافية - علي عبدالحميد علي عبدالقادر

طه الشريف

بطاقة هُوية لنازحٍ مجهول

روايـة

ملتقى الثقافة والفكر والإبداع
الحضارة العربية
للتنمية الثقافية

جميع حقوق الطبع محفوظة

الكتاب : بطاقة هوية لنازح مجهول
رواية
المؤلف : طه الشريف
الناشر : مركز الحضارة العربية
الطبعة : الثانية مارس 2024
الأولى: سبتمبر 2023
الغلاف : أيمن رياض دويدار

الجمع والصف الإلكتروني: وحدة الحاسوب بالمركز

رقم الإيداع: 2023/17671
الترقيم الدولي: 1 _ 610 _ 496 _ 977 _ 978

الشريف ، طه أحمد علي
بطاقة هوية لنازح مجهول . رواية/ طه الشريف/ط1 .
_ الجيزة: مركز الحضارة العربية، 2023، ط2، 2024.
132 ص؛ 21 سم.
تدمك: 1_610_496_977_978
1_ القصص العربية.
أ_ العنوان
813

هبطـوا من جبـل الأوليمـب، أرواحهم عطشـى للدماء، أحاطوا بجسدي الضخم، نزعوا عن رأسي تاج الحكمة، التهموا أوصالي وتركوا ما بقي مني قربانا للريح، لكن صوتًا ما برح يطاردهم ليذكرهم بأني كبيرهم الذي علمهم السحر.

(من أحلام نازحٍ مجهول)

بطاقة هُوية

(1)

ساحةٌ واسعة بدا أنها كانت فيما مضى متنزهًا عامًّا، تحيط بها مبانٍ متهدّمة كليًّا أو جزئيًّا، معظمها مُصابة برصاصاتٍ صنعت حُفرًا عميقة على جسدها الأسمنتي. في قلب تلك الساحة خيمة كبيرة تعلو مدخلَها لافتةٌ صغيرة كُتِب عليها "مستشفى ميداني"، وأمام المدخل عربة عسكرية تحمل شعار الأمم المتحدة، ويقف أمامها جنود يحملون أسلحة أوتوماتيكية وينتصبون في وضع التأهب، وفي الداخل يجول الأطباء وطاقم التمريض بملابسهم البيضاء بين الأسِرّة يتفقدون الجرحى والمُصابين.

وهناك في ركنٍ قصي، يرقد شاب عشريني تلتف حول رأسه وإحدى قدميه ضمادات طبية، وإلى جواره تقف طبيبتان، تستفسر الأولى عن طبيعة إصابته فتجيبها الأخرى قائلة: بعد انتهاء المعركة عُثِر عليه بين الأطلال، كان عاريًا تمامًا، وكانت هناك إصابة طفيفة في إحدى قدميه، وأخرى في رأسه، لم يعثروا معه على هُوية أو هاتف أو شيء يُوحي بالجهة التي يُقاتِل إلى جانبها! كان أمرًا يدعو إلى الشك والحيرة معًا، كل الأطراف المتقاتلة أنكرت تبعيته لأي منها، والمُؤلم أنه

أيضًا أُصيب بفقدان للذاكرة لا يمكننا تحديد موعد الشفاء منه.

صمتت لحظة تأملت فيها وجه ذلك الشاب المُصاب الذي لم يُبد أية ردة فعل، بل ظل على ملامحه الجامدة وعينيه الناظرتين إلى أعلى، وكأنه لا يشعر بوجودهما أو أن ما تقوله لا يعنيه! ثم استطردت وهي ترمقه بعينين تملؤهما الشفقة، بينما تجاهد لتخرج كلماتها بطريقة رسمية جافة: كما أننا لا يمكننا إبقاؤه هنا في المشفى بعد الآن.

في تلك اللحظة فقط تحرك ذلك الوجه المستكين، ونظر إليها بعينٍ مستطلعة، ثم أردف بصوتٍ واهن قائلاً:

- هل ستلقون بي إلى حيث أكوام النفايات في الخارج، من دون حتى أن تساعدوني في معرفتي هُويتي أو من أكون؟!

ردت نافية بقولها:

- لا.. ليس الأمر بهذا السوء، سوف تُنقَل إلى أحد المخيمات التي أنشأتها الأمم المتحدة للهاربين من جحيم تلك الحرب المجنونة، وهناك سوف تلقى الرعاية اللازمة.

لم يُعقِّب على ما قالته، فقد كان عقله ما يزال عاجزًا عن استيعاب حقيقة ما جرى، أومأ برأسه مُستسلِمًا وهو يشيح بوجهه منسحبًا من أمام وجه الطبيبتين اللَّتين انسلتا

على الفور بعيدًا عنه لينشغلا بجريح أخر من أولئك الذين تتكدس بهم تلك الخيمة الكبيرة.

حاول أن يعتصر ذاكرته علّها تجود عليه ولو بفتات من ذكرى قديمة لوجه حبيب أو قريب أو صديق، ولكنها أبت عليه وكأنها غدت صفحة بيضاء تنتظر منه أن يعيد ملء سطورها بأحداث جديدة! ولكن سرعان ما بدأت الأسئلة الحائرة تغزو رأسه صارخةً في تلك المتاهات التي تسكن في عقله:

تُرى من أكون؟ ولماذا ينكرني الجميع؟

أشعر بأني أنتمي لتلك الأرض التي تتنكر لي؟

هل كنت فعلاً أقاتِل وأقاتَل؟

أم أني وُجِدتُ في المكان الخطأ في الوقت الخطأ!

أغمض عينيه واستسلم، مُنتظِرًا تلك الساعة التي سوف يحملونه فيها من هذا المكان ويلقون به إلى ذلك المخيم المجهول.

* * *

(2)

يشعر بالدفء يتسلل إلى جسده النحيل، يفتح عينيه فتصطدم بسقف الخيمة، يلتفتُ بجانبه فيبصرهما يصارعان في نوم مضطرب، يأخذ نفسًا عميقًا ثم يشرع في الخروج مُتسلِّلاً من الخيمة التي يشاركه فيها رجلان أحدهما يُدعى "سعدون" والآخر "كرام".

كان "سعدون" فارع الطول مستدير الوجه كث اللحية والشارب، بينما "كرام" متوسط الطول يميل جسده إلى البدانة بعض الشيء، ورغم الحزن العميق الذي يغلف ملامحه إلا أن في عينيه نظرة حانية لمحها "وليد" من أول وهلة حين انضم إليهما في الخيمة.

كان "سعدون" و"كرام" فيما مضى يعيشان في إحدى الحارات الفقيرة، الأول فقد زوجته في إحدى الغارات بينما كان يحاول أن يجلب لها طعامًا من مكانٍ ناءٍ غرب المدينة، والثاني فقد زوجته وابنتيه وهو يحاول أن ينجوَ بهنّ محاولاً مغادرة الحي، بعد أن حولت القذائف حياتهم إلى جحيم، والآن لم يبقَ لهما سوى ذكريات مغموسة بالحنين والألم يجترّانها أمامه كل ليلة، فتجتاحه مشاعر متناقضة وتعاوده الأسئلة التي لا جواب لها:

- أيمكن أن أكون من أولئك الذين حولوا حياة هؤلاء

المساكين إلى جحيم؟

أحاول أن أفهم حقيقة ما يجري، مَن كان يقاتل مَن؟ ولماذا؟ هل أظل هكذا دون ماضٍ أو حاضر أو أمل في مستقبل؟ أُدرِك أنهما يتوجسان منيِ خيفة، ربما ظنوا أني مدسوسٌ عليهما، هل أخطأت برضوخي والقدوم إلى ذلك المخيم لأمارس حياتي كبقية الناس وأبحث بينهم عن أي خيط يقودني لذلك الماضي المجهول؟

يُغادِر خارجًا من الخيمة، فيُبصِر قُرص الشمس وهو يبزغ من خلف سورٍ ترابي ترتفع فوقه الأسلاك الشائكة ويحيط بالمخيم الملقى على حافة الصحراء، رؤية السور تبعث في نفسه مزيدًا من الشعور بالإحباط، إنه يُذكِّره بشكلٍ أو بآخر بأنه يقبع في سجنٍ كبير لا يعلم ما هي جنايته كي يأتوا به إليه، حاول أن يتناسى هذا الأمر ويستمتع بتلك الخيوط الذهبية التي غمرت جسده فبعثت فيه الدفء. تأمل المكان حوله، الخيام كلها تتشابه، إنها رمز لمعاناة لا يتذكر عنها شيئًا، قرر أن يترك قدميه تأخذانه كيفما اتفق، تجاوز عِدة خيام متجنبًا عِدة بِرك من المياه الآسنة التي خلفتها أمطار سابقة.

لا يزال الناس نيامًا، لا أثر لحركة أو نشاط، أو هكذا كان يظن قبل أن يلمح طيفًا أنثويًا. كانت تجلس على مقعد بلاستيكي رخيص وتمسك بيدها كتابًا تطالعه، اقترب منها أكثر، كانت مُستغرِقة في القراءة،

تفاصيلها بدت أكثر وضوحًا ، ملامحها أوربية ، بشرتها شقراء ، وجسدها متناسق ، وإن كان صدرها أكثر اكتنازًا ، تأمل هيئتها وفكر أنها تبدو في تلك اللحظة كزهرة وحيدة تبرز بين حقل أشواك شاسع.

انتبه من شروده مُزيحًا تلك الأفكار الغريبة من عقله سريعًا ، لم يشأ أن يبدو مُتطفِّلاً فتابع سيره حتى وصل إلى السور الشرقي ، فأبصر تلة مرتفعة بدت له وكأنها صُنِعَت خصيصًا لتُشرِف على الخيام الساجية أسفلها! صعد إلى الأعلى وتأمل المكان الذي بات موطنه الجديد ، كانت الخيام تمتد إلى مسافات بعيدة ، وكأنها أُنشِئت على عجلٍ وبغير نظام.

هبط "وليد" من أعلى التلة ، وكان ما يزال مُشوَّش الفكر لا يدري ما هي الخطوة التالية التي عليه أن يخطوها ليُلملِم شتات نفسه الحيرى. وبعد طول تفكير أدرك أنه ليس بوسعه سوى الانتظار ، فربما كشفت الأيام المقبلة شيئًا عن ماضيه المجهول.

عاد "وليد" إلى الخيمة فوجد "كرام" و "سعدون" يهِمان بالخروج ، لكنهما توقفا عند رؤيته.

"كرام" وعلى وجهه ابتسامة ودودة:

- مرحبا بك يا "وليد" ، أتمني أن ترتاح بصحبتنا.

تذكر "وليد" اضطراب نومه بسببهما الليلة الماضية ، فهَم أن يقول شيئًا لكنه تراجع وعدل عن معاتبتهما ،

وقال بلهجة مُمتنّة:

- أشكركما على قبول استضافتي معكما.

"سعدون" بسرعة: الشكر يجب أن يكون لـ"كرام"، لأنه من سعى لتكون ثالثا في الخيمة.

ظهرت الدهشة على ملامح "وليد"، ولكن "كرام" عاجله موضحًا بقوله:

- الحقيقة أن مخيم النزوح على اتساعه ليس سوى قرية مكتظة لا يستطيع سِرٌّ فيها أن يتوارى لأكثر من ساعاتٍ معدودة، وحين عرض المسؤولون عن مشفى المخيم على بعض النازحين استضافتك لحين توفير مأوى لك رفض الجميع لعِلمِهم بالطريقة التي عثروا بها عليك هناك في المدينة، حينها ذهبتُ إليهم وطلبت أن تشاركنا الخيمة، فليس لنا الآن سوى أن نتعاون على تحمل تلك المأساة بصرف النظر عن الطريقة التي أجبرت كل نازح على القدوم إلى هذا المخيم.

شعر "وليد" بالاطمئنان لتلك الكلمات وذلك الرجل الطيب ورفيقه، ووجدها فرصة ليسألهما عما يجول في خاطره، فقال بلهجة مترددة:

- إذن ماذا عن قادم الأيام، هل من عملٍ نقتات منه؟

رد "سعدون" بلهجة آسفة:

- الحرب مازالت مشتعلة في المدينة، والمُخيم أقيم

منـذ فترة قريبة، لـذا نحن نعيش على المسـاعدات التي تقدمها منظمـات الإغاثة إلى أن تتغير الظروف ونتمكـن من إيجاد فرص عمـل، أو نعود إلى بيوتنا التي هربنا منها دون إرادتنا.

قال "وليد"، وقد شعر بأن الحديث معهما قد عطّلهما عما كانا ينويانه:

- يبدو أنكما كنتما على وشك الخروج عندما أقبلت عليكما قبل قليل.

"كرام" مجيبًا:

ـ نعم، سـوف نذهب إلى منظمة الإغاثة لنستفسر عن بعض الأشياء.

ثم استطرد بوجهٍ باسم: اطمئن لن نغيب كثيرًا.

بادله "وليد" الابتسامة وأومأ موافقًا، ليخرج الرجلان، ويلبـث هو وحيدًا يفكر فيما يمكـن أن تخبئه له الأيام المقبلة.

* * *

(3)

صباحٌ جديد يُشرِق على مخيم النزوح، يستيقظ "وليد" مبكـرًا لا يعلـم مـاذا عليـه أن يفعـل، يُبصِـر "سـعدون" و"كـرام" وهما ما زالا نائمين. الأفكار مازالت تمور في رأسـه، يتسـاءل: هل يمكن أن يعيش الإنسان دون ماضٍ يتكِئُ عليه، دون جذورٍ يتشبث بها حين تهب العواصف؟! تلـوح في مخيلتـه صورة المستشـفى الميداني، فيتذكر الجرحـى الذيـن كان يتكـدس بهم المشـفى، كانت أجسادهم تتألم ونفوسهم حيرى تفكر في واقعها المرير ومسـتقبلها الغامض، ورغم ذلـك كان لهم ماض يعلمون كيف أوصلهم إلى ما هم فيه، ولهم أُسَرٌ تحيط بهم حين يسمح لهم الأطباء بالزيارة، وهم في كل الأحوال يعلمون مصير عائلاتهم وما أصبحت عليه وهُم على تلك الحال.

أما هو فلم يظهر أي شخص يتعرف عليه، أو يدّعي أنه من أقربائه أو أصدقائه، وتساءَل "وليد" في نفسه:

- أأكـون وُلِـدتُ من العدم كزرعٍ شـيطاني؟ لا يُوجد شخص واحد يستطيع أن يعرف لي أصلاً أو ماضيًا!

قـرر "وليـد" أن يغـادر الخيمـة لعـلّ السـير والحركة يخففـان عنـه طوفان الأسـئلة التـي تتدفق في رأسـه. في الخارج، داعب وجهه نسـيم الصباح بينما كانت الشمس

تنشر أشعتها رويدًا رويدًا على استحياء، وقبل أن يتحرك خطـوة أبصر تلك الفتاة التي لفتت نظره بالأمس، ولوهلة ظن أنها كانت تنظر نحوه قبل أن يُدرِك أنها تمسك بيدها كتابًـا بدا أنها منشـغلة فـي مطالعته. لم تكـن خيمتها تواجـه خيمتـه مباشـرة، ولكن من زاويـة ضيقة يمكن رؤيـة بـاب خيمتها من مكانه، أحس بسـعادة خفية تدب في قلبه، وبشـعور لا إرادي وجـد قدميه تقودانه نحوها، وحين اقترب منها ألفى عينيها وهي ترمقه بنظرات يملؤها الفضـول، فارتبك للحظـة قبل أن يُلملِم مشـاعره ويتقدم بضع خطوات صانعًا ابتسامة عريضة على شفتيه، مُردِفًا:

ـ معذرة إن كنت قطعت عليك قراءتك وخلوتك.

فردت عليه بلهجة امتزجت فيها الدهشة بالسخرية:

ـ أي خلوة تقصد؟!

ثـم أشـارت بيدهـا بطريقـة اسـتعراضية إلـى الخيام المحيطة بها واستطردت:

ـ ألا تعلم أين نحن؟

ولم تنتظر إجابته وأكملت سريعًا:

ـ نحـن في مخيم نزوح لا خصوصيـة فيه لأحد، حين يسـقط المطر وحين تهب الرياح تهتك أستار الخيام الواهية ونبقى ليالي في العراء.

توقفت وكأنها تذكرت شيئًا، ثم قالت: من أنت؟

واستطردت سريعًا :

- تبدو نازحًا جديدًا في المخيم.

قال "وليد"، وقد وجدها فرصة سانحة لإطالة الحديث معها:

- لا أستطيع أن أخبرك من أنا ، لأني في الحقيقة لا أعلم من أنا ، ولكني بالفعل نازحٌ جديد إلى المخيم، وهذا هو اليوم الثالث لي؛ الأول قضيته في مستشفى المخيم، والثاني في خيمة يشاركني فيها رجلان قضيا معظم الليلة في اجترار حكاياتهما حتى ظننتُ أني سأصحو على نوبة اكتئاب جراء ما سمعت.

قالت وهي تزيح خصلة شعرٍ صفراء دفعها النسيم لتغطي عينيها:

- كل نازحٍ في المخيم له حكايته ومأساته التي هي جزء من مأساة أكبر وُلِدَت من رَحِم تلك الحرب المجنونة.

هو بصوتٍ يملؤه الأسى:

- إلا أنا فلي مأساة ، وليس لي حكاية ، أو بمعنى أصح ليس لي حكاية أعلم فصولها.

كانت كلماته مليئة بالغموض والشجن، تمامًا مثل ظهوره المفاجئ أمامها في ذلك الصباح الباكر. تعجبتْ من تلك الصدفة التي لم تكن في حسبانها أو حسبان

مـن اختاروا لها الإقامـة في تلك الخيمـة، كانت تود أن تظـل معه فترة أطول، وأن تسـتفهم منه أكثر، ولكنها أدركـت أن الشـمس بـدأت ترتفـع إلـى قبـة السـماء، وأبصرت بعض الأقدام وهي تخرج من الخيام، فانتصبت واقفة وهي تقول:

- معذرة، يجب أن أغادر الآن.

رد مُستسلِمًا: حسنًا.

قالت وكأنها تذكرت شيئًا: اسمي "مريم شاكر".

- وأنا أُدعى "وليد".

وعَقَّب مُسرِعًا: هكذا يناديونني.

لم يشـأ أن يخبرها بأن هذا الاسـم قد اختاره له أطباء المستشفى الميداني عندما عجزوا أن يعرفوا له اسمًا.

* * *

(4)

في تلك الليلة التي غاب فيها القمر خلف سُحب سوداءَ داكنة، تاركًا المخيم غارقًا في ظُلمة كثيفة، وقع حدثٌ غريب سلب النوم من عيون قاطنيه، فجعلهم يتهامسون بتخمينات ويخشون من مُقبِل الأيام.

جريمة قتل وقعت بالقرب من خيمة "وليد" ومرافقَيه، القتيل لم يُعلَن عن هويته، ولكن تسللت أخبار تنبئ بأن مصرعه كان برصاصة أُطلِقَت من مسدس كاتم للصوت وبطريقة احترافية جعلت الجاني يهرب والمجني عليه يلفظ أنفاسه قبل أن يصل إليه المُسعِفون أو رجال الأمن الذين يحرسون المخيم، أما "وليد" نفسه فلم يُبد اهتمامًا عندما سمع عن تلك الدماء التي سالت بالقرب من مسكنه، ربما لأنه لم يكن يرغب في أن يُثقِل قلبه بمأساة إضافية، خاصة أنه كان يظن حينها أن الأمر لا يعنيه، وأن عليه أن يركز اهتمامه في البحث عن ماضيه وذاته الضائعة، غير أنه بعد مضي ساعات قليلة أدرك أن جريمة القتل تلك ليست فقط تعنيه، بل ربما كان هو السبب الحقيقي والمُباشِر في وقوعها على هذا النحو!

استدعوه صباحًا ليمثُل أمام المُحقِّق، فامتثل، بدأ المحقق بقوله إنه يعلم جيدًا حالة "وليد" الصحية وأن

رأسه ربما يحمل من الأسئلة أكثر مما يتوقع أن يفيد بأجوبة، ولكن على أية حال يجب عليه أن يساهم في فك طلاسم تلك الجريمة الغامضة.

أخرج المحقق صورة فوتوغرافية وأعطاها لـ"وليد" قائلاً:

- هذا هو القتيل، هل سبق أن رأيته من قبل؟

"وليد" (مجيبًا):

- بعد الحادثة لا أعتقد أني أبصرته في المخيم أو المشفى الميداني من قبل، ولكن قبل ذلك لا أدري كما تعلم.

المُحقِّق (بلهجة آسفة):

- مفهوم.. ولكن هذا الرجل كان يحمل صورتك ويبدو أنه كان مُكلَّفًا بمراقبتك، ولسبب نجهله قامت جهة ما باغتياله، ورغم أننا وصلنا مسرعين إلى مكان الجريمة فإننا لم نتمكن من العثور على أثرٍ للقاتل، بينما عند التدقيق في ملابس القتيل عثرنا على جيب سري بداخله كاميرا متطورة احتوت ذاكرتها على صور لك وأنت في المستشفى الميداني، وأخرى بعد قدومك هنا إلى المخيم.

"وليد" وقد ازدادت حيرته وظهر التوتر على وجهه:

- حضرة المُحقِّق، ليس لدي ما أقوله.

المُحقِّق (بلهجة حاسمة):

- ربما تكون صادقًا، ولكن عليك أن تعلم أن حياتك أضحت في خطر، وعليك أن تتعاون معنا.

"وليد": وكيف لي ذلك؟!

المُحقِّق:

- لقد تم انتشالك من منطقة شهدت عمليات عسكرية طاحنة بين قوات مختلفة وجهات عِدة، كانت هناك قوات حكومية وفصائل طائفية وثوار ممن لا يزالون يطلبون الحرية، هذا غير وكالات المخابرات التي كانت أجهزتها وأفرادها يتغلغلون في المنطقة بهدف جمع المعلومات. بالمُجمَل، إحدى تلك الجهات وربما أكثر من جهة تسعى خلفك لأمر نجهله حتى الآن.

"وليد" (بلهجة يائسة):

- سيدي أنت تزيد الأمور تعقيدًا؛ كل هؤلاء الأعداء المحتملين أنا لا أعلم عنهم شيئًا.

المُحقِّق:

- اسمع يا "وليد"، نحن لا نستطيع تعيين حراسة علنية خاصة بك في هذا المخيم، وفي نفس الوقت لا يجدر بنا تركك وشأنك هكذا، سوف نكون بالقرب منك غير ظاهرين للعيان، وسوف نسعى لتوفير

الحمايـة المُمكِنـة لك، وفي نفـس الوقت عليك أن تخبرنا فورًا إن تذكرت أي شـيء عن ماضيك مهما يكن صغيرًا أو ظننته تافهًا لا يعني شيئًا.

"وليد" بصوتٍ يكسـوه الحزن: حسـنًا.. سوف أنفذ ما تطلبه مني، هل من تعليمات أخرى؟

المُحقِّق:

- يمكنـك المغادرة الآن، مع وعـد بأن تكون أكثر حذرًا من ذي قبل.

"وليد" (وهو يقف مستعدًّا للمغادرة): أعِدك..

ثـم ينسـل خارجًـا وقد تزاحمـت الأفكار في رأسـه، مصممًا في قرارة نفسـه علـى معرفة حقيقة ماضيه مهما تكن المخاطر والعواقب.

* * *

(5)

مرت ساعات النهار بطيئة وعصيبة. منذ عودته من مبنى الأمن، لم يغادر "وليد" مكانه، والآن وقد أقبل الليل وعاد شريكاه في الخيمة شعر بأنه لا طاقة له في المكوث معهما وسماع أحاديثهما التي لا تنتهي عن حياتهما السابقة ومآسيهما اللاحقة، وبرز في مخيلته فجأة ذلك الوجه الملائكي الذي التقاه في ذاك الصباح المُشمِس وكأنما أبصر فجأة قارب نجاة في ذلك البحر المُظلِم من الهواجس التي تحيط به، فقرر أن يحوم حول المكان الذي التقاها فيه سابقًا علَّه يحظى برؤيتها مرة أخرى.

خرج متجهًا إلى الناحية القريبة التي تقبع فيها خيمتها، حيث التقت عيناه عينيها أول مرة، كان الهواء باردًا والسُّحب قد غادرت سماء المخيم، فظهر القمر وهو في طور البدر يفرش نوره الفضي في الأُفق، فتبرز معالم الأشياء وكأنما لم يغادرها النهار بعد.

خفق قلب "وليد" (متسائلاً):

- ترى هل سيجدها في نفس المكان أم سيضطر إلى السؤال عنها أو الانتظار ساعات طويلة حتى يظهر طيفها؟

كانت خطواته ثقيلة مترددة، يتوقف كل بضع خطوات ليلتفتَ حوله بعيونٍ متوجسة، ثم يواصل سيره، حتى أبصرها في المكان نفسه وعلى المقعد ذاته. كانت وحيدة ليس في يدها كتاب، ولم يكن أحد بصحبتها، كانت الأقدار وكأنما تُرتِب له اللقاء الثاني كما رَتبت له اللقاء الأول، لم يتردد هذه المرة بل تقدم نحوها وبادر بتحيتها بوجهٍ باسم قائلاً:

- مساء الخير آنسة "مريم".

أشرق وجهها لرؤيته وبادلته التحية، بدا وكأنها هي أيضًا كانت تنتظر تلك اللحظة أو تتوقعها.

قالت بصوتٍ أكسبته المرح:

- أنت "وليد" الذي انضم لمخيمنا حديثًا، أذكُرك.

فرد قائلاً: نعم وأنتِ "مريم" التي التقيتُها أول أمس.

كانت نسائم الهواء الباردة تنعش روحيهما، بينما تبرز بعض وجوه العابرين لطرقات المخيم الضيقة أو الأطفال اللاهين بين الخيام فترمقهما بأعينٍ مستطلعة ثم تكمل سيرها أو لهوها. شعر بالحرج، ولكنها كانت أكثر جرأة منه، قالت: يمكنك الجلوس، سأُحضر لك مقعدًا. ودلفت إلى الداخل وعادت سريعًا، ليجد نفسه جالسًا أمامها. كان نور القمر يلامس وجهها، فيضفي عليه هالة من الألق الساحر، بينما "وليد" مازال يتأملها بعينين أضناهما الأرق وعقلٍ أرهقته الأفكار والمخاوف، ولكنه

تغلب على تردده أخيرًا وخرجت الكلمات من فمه:

- هل تعلمين أن مجيئي الليلة إلى هنا ليس صدفة؟

"مريم": أعلم ذلك.

دُهِش لتلك الإجابة، ولكنها استطردت سريعًا قائلة:

- أقصد أني أدركت أن لك قصة تود أن يستمع إليها شخص غير من يشاركك الخيمة.

"وليد" (بصوتٍ كسير):

- هل سمعتِ عن جريمة القتل التي وقعت أمس في المخيم؟

"مريم": نعم؛ يبدو أن الدماء تأبى إلا أن تُطارِد أهل المخيم المساكين أينما حلوا، حتى في مكان هروبهم هذا.

"وليد": تلك الدماء لم تكن تطارد أحدًا سواي.

"مريم" (بصوتٍ مضطرب، وقد تغيرت ملامح وجهها الباسمة المطمئنة إلى أخرى قلِقة ومندهشة):

- ماذا تقصد بكلامك هذا؟!

"وليد": تلك هي القصة التي جئت لأرويها لك.

وبدأ "وليد" يقص عليها ما كان من أمره منذ عثروا عليه هناك تحت أنقاض المدينة، إلى أن تم استدعاؤه من قِبل المحقق ليخبره بأن القتيل لم يكن سوى شخص مجهول كانت مهمته مراقبته، وربما قتله أيضًا.

ساد الصمت بينهما للحظات بدا فيها "وليد" وكأنه

خفف من الأحمال الثّقال التي كانت تنوء بها روحه الحائرة، قبل أن تقطعه "مريم" بقولها:

- لقد سمعت الكثير عن الحكايات والمآسي التي عايشها ذلك الشعب المسكين، لكن ما جرى معك شيء مختلف، أنا أيضًا لي حكايتي الخاصة التي كانت سببًا في قدومي إلى هذا المخيم التعيس.

وبدأت "مريم" في الاسترسال بصوتٍ حزين يُعبِّر عن عُمق جراحها هي أيضًا قائلة:

- نشأتُ وحيدة لأب عربي وأم بلجيكية تعرفا في جامعة "خنت"، حيث كان أبي شاكر مُبتَعثًا للدراسة، وأمي فتاة مُقبِلة على الحياة وحالمة، آمنت به وأحبته وارتبطا بعد التخرج، وكنت أنا ثمرة هذا الزواج، ومرت السنوات ورجعنا بصحبة أبي إلى موطنه، كان يحلم بأن يُطبِّق ما تعلمه ويساهم في صنع مستقبل أفضل، ولكنه حُوصِر بمنظومة فساد لم يستطع أن يتواءم معها، وخسر عمله في النهاية، فقرر أن يهاجر بنا مرة أخرى، منتظرًا أن تتحسن الأوضاع ويتمكن من العودة إلى وطنٍ حر بعيد المنال، إلى أن اشتعلت الثورة وملأت مشاهدها الفضائيات ومواقع التواصل الاجتماعي، عندها غادر أبي وأمي إلى موطنه لينضما للجموع الثائرة، لم تكن حينها سوى مظاهرات سلمية عفوية تنادي

بالحرية وتغيير الحاكم، ثم بدأ قمع الشعب وسفك الدماء، وكان من بين الضحايا أبي وأمي.

واسترسلت "مريم"، وقد اغرورقت عيناها بالدموع، بينما كانت تُومِض في رأس "وليد" صور ضبابية غير واضحة المعالم، وإن طغى عليها اللون الأحمر وأصوات صراخ وعويل وظِلال مُبهَمة تعدو في كل مكان:

- لم أكن معهما فقد تركاني لأُكمِل دراستي، وحين عَلمتُ بما جرى لهما تغير مسار حياتي بشكلٍ جذري، آمنتُ أنا الأخرى بالثورة التي مات من أجلها أبي وأمي، وقَدِمتُ هنا لأنضم لمنظمة إغاثة تساعد النازحين. لم أرغب في أن أسكن في استراحة المنظمة، وآثرتُ أن تكون ساعات نومي وراحتي هنا في تلك الخيمة البسيطة مثل باقي النازحين الذين أشعر بأني أنتمي إليهم.

وصمتت "مريم" لتُحرّك قصتها في نفس "وليد" رغبة استولت عليه منذ عَلِم بصلته الخفية بجريمة القتل، ولتجد "وليد" قد اقترب منها أكثر وقال بصوتٍ هامس:

- سوف أقوم بخطوة مهمة لابد منها؛ علـيَّ أن أغادر المخيم وأعود إلى المدينة دون أن يشعر بي أحد.

"مريم" (بصوتٍ مذعور):

- هل تُدرِك معنى ما تقوله؟ الأمر ليس بالسهولة التي تتخيلها.. المعارك مازالت محتدمة هناك.

"وليد" (بإصرار):

- المخاطر تحوطني في كل مكان، هنا مثل هناك، لن يستغرق الأمر وقتًا طويلاً، وربما ساعدني ذلك على تذكر ولو فتات من حياتي السابقة.

"مريم" (بصوتٍ مستسلم):

- إذن اسمح لي أن أرافقك إلى هناك، فستحتاج إلى وجودي بجانبك لكي تستطيع الخروج من المخيم.

* * *

(6)

بعد أن تركها "وليد" ومضى إلى خيمته، أحست "مريم" بأن شيئًا ما قد تغير داخلها..

تُرى، أيكون ذلك الشيءَ الذي طالما قرأت عنه وأبصرته في عيون العُشَّاق والمُحبين؟!

دق قلبها لذلك الخاطر، وتساءلت: كيف لها أن تقع في حُب رجلٍ لم تعرفه إلا قبل سويعات قليلة؟ وكيف لها أن تتجاوز التعليمات الصارمة التي حذرتها من الوقوع في مثل ذلك الأمر؟ ولكنها رغم ذلك تشعر بأنها تعرفه منذ أحقاب بعيدة مُوغِلة في القِدم، ربما قبل أن تولد؛ ألم يقل أحدهم إن الروح تعيش عِدة حيوات وتنتقل عبر الأزمنة؟ إذن، ربما قابلته في عهدٍ مضى وانجذبت إليه روحها وكانت بينهما قصة حُبٍ جارفة، ستعيد بعث فصولها من جديد، أو ربما قبل أن يُوجَد أول إنسان كانا شجرتين متجاورتين تداخلت جذورهما وارتويا من ماءٍ واحد وحضنت فروع كل منهما فروع الأخرى!

ولكن صوتًا غامضًا أخذ يوسوس لها قائلاً:

- ولكنه رجل يطارده الموت ويحيط الغموض به من كل جانب، أما يكفيك ما عانيتِه من آلام فقد أبيك وأمك؟

أبـي وأمـي! ألم يجمع بينهمـا الحُب، وبـه اجتازا كل الصعاب وعَبرا كل الموانع والحواجز؟

اسـتراح قلبها لذلك الخاطر، وهيأت نفسـها لمغامرة خارج أسـوار المخيـم، وبالتحديد في قلب المدينة؛ حيث عُثِر على "وليد" بين الأنقاض فاقدًا هويته وذاكرته.

* * *

‹7›

تـكاد تسـمع دقات قلبهـا تطغى على أصـوات المارة والسـيارات، أمـا هو فقد ثبت في مكانه لا يسـتطيع أن يخطو خطوة أخرى. نظرت إليه وقالت بوجه مِلؤه الدهشة والخوف: لماذا توقفت هكذا؟

كانا قد تسلّلا من مخيم النزوح بهُوية موظفي الإغاثة وزيّهـم الـذي اسـتطاعت "مريـم" توفيره بحكـم عملها، ووصلا إلى الضاحية المقصودة في المدينة قبل أن ينتصف النهـار. كان الجو حارًا رطبًا، ورائحة القلق والريبة تعبّق الأجـواء، و"وليـد" مازال يـراوح مكانه؛ يجـوس ببصره متأملاً الأبنية التي مازالـت تعبث بوجهها ندوبُ الحرب، وأخرى بدا من مظهرها أنها شُيّدت حديثًا وعلي عجلٍ.

قـال وقـد أحس بـأن دوامات مـن الأفـكار تصطرع في رأسه وتغوص به في أعماق سحيقة من الحيرة:

- هناك شيء رهيب حدث هنا.. ترى، أي أهوال مررتُ بهـا؟ وكيف نبتـت تلك الأبنية؟ ومَـن يقطنها ما دام أغلب النازحين في المخيم ينتمون إلى هذا الحي؟!

قالت "مريم" وقد ومض في خاطرها استنتاج:

- لقـد سـمعنا عـن تغييـرات ديموغرافيـة واسـتبدال

للسكان الأصليين في بعض المناطق لأغراض طائفية وسياسية، ولكن لا دليل ماديًا واضحًا يدين هؤلاء.

واستطردتْ "مريم" وكأنما أفاقت على تصورٍ مخيف، وقالت:

- إلا إذا تمكن أحدهم من الحصول على أدلة ملموسة تخص أفعال تلك الجهات أو أشخاص بعينهم، خصوصًا أن تلك الجريمة تُعَد جريمة ضد الإنسانية.

"وليد"، وقد أدرك مغزى ما تقوله "مريم":

- تقصدين أنه ربما أكون أنا ذلك الشخص!

قالت "مريم"، وقد بدأت خطواتهما المتثاقلة تخف بعض الشيء، وقد تجاوزا الشارع الرئيسي ولاحت بدايات الحواري والأزِقة الضيقة التي لم تفارقها رائحة الموت والدمار، رغم مظاهر الحياة التي تحاول أن تفرض نفسها عَبثًا من خلال الباعة الجائلين، ومن خلال السيارات الصغيرة التي تمرُق بجانبهما، وتلك النسوة اللاتي يطللن بوجوههن من الشرفات:

- نعم أقصد أنه ربما كنت شاهدًا على تلك الأعمال أو مُشارِكًا فيها، لذا هم يراقبوك وربما يحاولون الإيقاع بك.

"وليد" وقد توقف عن السير وقال بثقة:

- لو كان الأمر كذلك لما أعياهم التخلص مني فورًا وبلا عناء.

ثم استطرد بتنهيدة عميقة خرجت من أعماق قلبه المكلوم:

- هناك شيء جري بالتأكيد ، ولكني ما دمت فاقدًا ذاكرتي فإن الإمساك به ليس بالسهولة بمكان و.. و..

توقفت الكلمات على لسانه فجأة ، إذ لمح فوهة بندقية مصوَّبة نحوهما وقد أمسك بها رجل مُلثَّم بدا أنه يعرف هدفه جيدًا. وانطلقت الرصاصة قبل أن تنتبه "مريم" لما يجري أو يتحرك "وليد" من مكانه ، ومرَقت من فوق رأس "وليد" لتستقر في جدار حائط البناية التي كانا يقفان تحتها.

لم ينتظر "وليد" الرصاصة الثانية بل أمسك بيد "مريم" وانطلقا عَدوًا مغادرين للحي بأقصى ما يستطيعان من سرعة.

* * *

(8)

كانت الشمس تأذن بالمغيب، ونسمات خريفية باردة تلفح وجهيهما عندما لاح لهما سور المخيم، فاجتاحهما إحساس بأنهما أصبحا في أمان. وجيبُ قلبيهما غدا أكثر هدوءًا، وأقدامهما التي كَلَّت من العَدْو آن لها أن تسير الهوينا، ربما كان شعورًا زائفًا يدحضه مجرد تذكر تلك الدماء التي سالت بجوار خيمة "وليد"، ولكنهما على أية حال استطاعا أن يدلفا من أمام حُراس المخيم بوجهين خاليين من التعابير الفزعة تمامًا كحالهما حين خرجا صباحًا.

قالت "مريم" وعلى وجهها ابتسامة مطمئنة:

- أخيرًا وطئت أقدامنا جوف المخيم.

"وليد" (بوجه مُجهَد):

- قلت لك سابقًا عليك ألا تنخدعي بارتفاع أسوار المُخيم، فالخطر قائم هنا ربما أكثر من المكان الذي هربنا منه للتو. وربما الذي جرى معنا في المدينة لم يكن هدفه قتلي بل أظنها فقط رسالة لكي لا أعود إلى هناك مرة أخرى

"مريم" بثقة تجافي ما كانت عليه منذ ثوانٍ:

- على الأقل نحن هنا بين أهلنا من النازحين.

جال "وليد" بعينيه مُستعرِضًا الخيام التي عكس

سطحها البلاستيكي أضواء الشفق الأحمر فبدت وكأنها شموس صغيرة على وشك الاحتضار، ثم أعاد إليها بصره ناظرًا في عينيها مباشرة وأردف بصوتٍ حالم:

- تملكين قلبًا يمكنه أن يحتوي العالم ويخفف من أحزان الثكالى.

واستطرد: حينما أستردُّ ماضيَّ المجهول وأتصل بجذوري المفقودة سوف تكون عائلتي هي عائلتك، بل أستطيع أن أقول لهم دون تردد أنك غدوت بمثابة روحي التي أحيا بها، ومن أجلها أتمسك بأهداب الحياة.

"مريم" (بصوتٍ ضاحك):

- إذن لا داعيَ أن تُرهِق نفسك في البحث عن حقيقة ماضيك، فقد بدا لي الآن أنك كنت شاعرًا مُرهَف الحِس، وربما كنت من أولئك الفنانين الذين يقضون حياتهم في الأقبية يرسمون اللوحات ويحلمون بعالمٍ أفضل، من دون أن يحظوا بالشهرة أو المال.

تبادلا الضحكات المُفعَمة بالأمل، وهما يتوغلان في المخيم بحذرٍ تحت سماء مُرصَّعة بالنجوم اللامعة بعد أن غادرتها الشمس مُسرِعة إلى مرافئها في النصف الآخر من العالم، وبينما هما كذلك إذا بهاتف "مريم" ترتفع نغماته، وحين أبصرت هُوية المتصل بان على محياها الاهتمام، فقد كان على الجانب الآخر رئيسها في المنظمة، لم تدم المكالمة طويلاً ولم ترد فيها "مريم" إلا بكلمات قليلة، وإن كانت في معظمها من قبيل الفهم والطاعة لما يُملَى عليها،

وحين أعادت الهاتف إلى حافظته بادرها "وليد" بقوله:

- أرى ملامح وجهك المَرِحة تغيرت للنقيض؛ ما الأمر؟

"مريم": لقد ظهر الوباء في المخيم، وعلينا أن نستعد للأسوأ.

ارتجف جسد "وليد" وتوقف عن السير، وكأنما أصابته صاعقة، ثم أردف قائلاً وقد غشيت وجهه ملامح الحزن:

- هؤلاء المساكين لا يستطيعون مواجهه بضع قطرات من المطر، فكيف لهم أن يواجهوا وباء بات يغزو أعتى الدول؟!

"مريم": لديك حق.. ولكننا سنبذل كل ما في وسعنا، وستكون أنتَ ممن يقدمون يد العون.

"وليد" بنظرة جمعت بين الدهشة والتساؤل:

- هل تنوين أن تشركيني فيما تقومين به من أعمال في المخيم!

"مريم": ولِمَ لا؟ إذا كان الخطر قائمًا في كل وقت وكل مكان فعلينا ألا نستسلم له، بل نقاومه ونتحداه بالعمل ومساعدة الآخرين.

كان صوتها يغمره الحماس، وبدا له أن عينيها تتوهجان بألقٍ ساحر، وقد شعر بأن أحاسيس رقراقة تنساب عبر روحيهما. أومأ لها تعبيرًا عن موافقته لما تقوله، ثم ودعها قائلاً:

- علينا الآن أن نفترق حتى لا يرانا معًا أفراد الأمن

المُكلَّفين بحمايتي، أو بالأحرى مراقبتي، فإني أظن أنهم نبشوا كل ركن في المخيم بحثًا عني منذ أن نجحتُ في الإفلات من عيونهم ومغادرة المخيم بصحبة فتاة حسناء ذات عيون زرقاء.

ندّت عن "مريم" ابتسامة خجولة ثم أردفت:

- حين تعمل معنا سوف يكون تلاقينا في أي وقت شيئًا عاديًا لا يَلفِت الأنظار.

"وليد": صدقتِ...

تحرك مبتعدًا عنها وكأنه ينزع قدميه من تلك البقعة التي كانت تجمعهما نزعًا. واصل "وليد" سيره الحذر بين دروب المخيم، وقد جاهد ليُبعِد عن عقله المخاوف والهواجس، لكي تبقى فقط صورة "مريم" تنير عقله وقلبه، وبينما هو كذلك إذا بيدٍ ثقيلة تُمسِك بمعصمه وأخرى تضغط على فمه لتمنعه من رفع صوته بالاستغاثة.

كان الظلام قد أرخى سدوله، وبدت ملامح الخيام والطُّرق المتعرجة بينها أشبه بظِلالٍ باهتة، وتلك الأيدي القابضة عليه بدت كأشباح خرافية لا يستطيع الإفلات من قبضتها، وحين أيقن أنه مقتول لا محالة همس له أحد الشبحين بصوتٍ بدا مألوفًا لأذنيه:

- لا تخش منا يا "عبد الله"، نحن معك، فقط اتبعنا بصمت وسوف نخبرك بحقيقة هويتك.

* * *

(9)

الظلام الدامس استحال فجأة إلى نورٍ ساطع فتبين ملامح الأشياء والوجوه، كانت غُرفةً فسيحة وُضِع على جدرانها خرائط متنوعة وبعض صورٍ لرجال بزي عسكري بدا أنها التُقِطَت في ميادين قتال. لم يكن ثمةً مقاعد كثيرة، فقط مقعدان جلس على أحدهما "وليد" وفي قبالته جلس رجل ثلاثيني نحيف الجسد يرتدي بدلة كاملة تزينها رابطة عُنق أنيقة، وبجواره وقف رجلان بملامح جامدة وأجساد فارعة تكاد عضلاتهما المفتولة أن تُمزِّق لباسهما. أما "وليد"، فقد كسا وجهه الشحوبُ وتجمعت فوق جبهته حبات العرق، رغم جو الغُرفة البارد، فنبأت عما يعتريه من توتر وما يختلج في عقلِه من أسئلة متراكمة. انتظر أن يبادره أحدهم بالحديث فلم يظفر سوى بنظرة ودودة من عين الرجل النحيف، وجمودٍ لا يتزحزح من الرجلين الآخرين، فبادر هو قائلاً:

- من أنتم؟ ولماذا أنا هنا في هذا المكان؟

أجاب الرجل النحيف قائلاً: ألا تذكر تلك الوجوه؟

"وليد" وهو يعيد نقل عينيه بين الوجوه الثلاثة، ثم يوجه حديثه للجالس قبالته:

- في الحقيقة قبل الآن لا أظن.. وإن كان لدي شعور

بالأُلفة نحوكم لا أعلم مصدره.

- حسنًا، سوف تعلم الآن مصدر ذلك الشعور الذي تحس به وتقف على حقيقة ماضيك، ولكن قبل ذلك لابد من أن أبدأ بتقديم نفسي والرجال إليك: اسمي "مراد منصور".. ثم أشار إلى الرجل الواقف عن يمينه وأردف: وهذا "عباس الجابر".. والتفت إلى الناحية الأخرى ليستطرد: وهذا ثالثنا "توفيق قاسم".. أما أنت فـ"عبد الله راشد" أحد رجالنا الأبطال؛ خدمت قضيتنا وجلبت لنا معلومات مهمة كنا في أمس الحاجة إليها ونحن نقاتل ونقوم بتطهير مدينتنا.

وصمت "مراد" ليرى أثر كلامه على وجه "وليد" الذي تملّكه شعور بأنه على وشك الولوج إلى كابوس جديد، ولكنه تماسك وقرر أن يتحمل أثقال الماضي عَلّه يصل إلى نهاية النفق المظلم فيُبصِر بعده طاقة نور.

- ما زلت لا أفهم شيئًا مما تقوله، ثم لماذا الآن تظهرون هكذا فجأة لي وتخبرونني بأشياءٍ بتلك الخطورة، رغم علمكم بأن عقلي غدا صفحةً بيضاء لم يخط فيها إلا ما عشته بعد أن فتحت عيني في المشفى الأممي هناك في المدينة؟

- حسنًا يا "عبد الله".. سوف أجيب عما يختلج في نفسك من أسئلة، في تلك الليلة التي أُصِبت أنت فيها كنا قد استجمعنا كل قوانا لخوض معركة السيطرة

على الحي الشرقي من المدينة، كنا نعتبرها معركة مهمة ومصيرية، ورغم ذلك لم نتمكن من الفوز بها حينها فاضطررنا للانسحاب، كذلك انسحبت القوات الحليفة بعد ضغوطٍ دولية، وفوجئت بعض عناصرنا وهي تُخلي المكان لقوات المراقبة بوجودك مصابًا تحت إحدى البنايات، لم نكن نعرف سبب وجودك المفاجئ في أرض المعركة، ولو أننا بادرنا بانتشالك لانكشفت علاقتك بنا ولأدرك الأعداء أن المعلومات التي بحوزتك أصبحت بحوزتنا فأخذوا حذرهم واحتياطاتهم، فاضطررنا لتركهم يقومون هم بمهمة إنقاذك، على ألا نغفل عنك لحظة واحدة بعد ذلك، وبالفعل حين أخذوك للمشفى الميداني أخبرتنا عيوننا المزروعة هناك بطبيعة إصابتك، ففضلنا أن ننتظر ريثما تتلقى العلاج اللازم أو نتمكن من سحبك بطريقة لا تَلفت الأنظار، ولكن ما جرى بعد ذلك لم يكن في الحسبان، فلم يكن باليسير أن نزرع عناصر لنا في مخيم النزوح الذي جلبوك إليه، ورغم ذلك حاولنا حمايتك بشتي الطرق.

"وليد" (مقاطعًا، وقد أحس بأنه على وشك أن يحل أحد الألغاز التي حيرته):

- أنتم إذن من قتل ذلك الرجل الذي ادّعوا أنه كان يراقبني؟

"مراد" (بلهجة حادة):

- لا يا "عبد الله" ليس نحن، وإن كنا على استعداد لقتل كل من يُهدِد أمنك وسلامتك من أولئك الحُثالة اللذين يقطنون المخيم أو من خارجه.

"وليد" (بامتعاض):

- لماذا تُطلِق عليهم حُثالة.. أليسوا بشرًا مثلنا؟ أوَلسنا ننتمي لوطنٍ واحد؟!

ضحكة ساخرة تنطلق من فم "مراد" الذي ينظر إلى رفيقيه فيتبعانه بضحكات مصطنعة ثم يقول:

- الآن فقط أدركت أهمية الذاكرة في حياة الإنسان.

واستطرد، وقد تبدلت ملامحه ولهجته إلى الجدية والصرامة:

- قبل أيام قليلة مضت كنت أنت أشدنا احتقارًا لأولئك الناس، وأكثرنا حماسًا وإيمانًا بما نقوم به وما نقاتل من أجله، واليومَ ها أنت ذا تبدو وكأنك واحدٌ منهم أو من تلك المنظمات الإغاثية التي ترتدي إحدى حللها الآن.

"وليد"، وهو يشعر بأنه يهوي في بئرٍ سحيقة:

- ولماذا كنت كذلك؟ وماذا فعل بنا أولئك البؤساء كي أحقد عليهم بهذا الشكل؟

"مراد": هؤلاء ليسوا بؤساء، إنهم يعتنقون مذهبًا يُخالف

مذهبنا ويُحقِّره. إنهم على الضلال القديم، وقد عانى أجدادنا من غرور أجدادهم وصلفهم، والآن يجب أن يدفعوا الثمن ونُطهِر الوطن منهم..

ثم تابع، وقد وقف مغادرًا مقعده ليدور حول مقعد "وليد" وكأنه يحاصره:

- يا "عبد الله"، هذا وطننا نحن الذي ينتمي إلينا وننتمي إليه، أما هؤلاء فلم يعد لهم مكان بيننا.

"وليد" (معترضًا):

ـ ولكن هل اختلاف عقائدنا يستدعي كل تلك الدماء؟ وهل يجب أن تتوارث الضغائن والأحقاد ونجعل هُوية الوطن ملكنا نحن فقط؟

"مراد" وهو يكبح غضبه ويحاول أن يرسم ابتسامة مصطنعة:

- "عبد الله".. لتعلم أننا لم نأتِ بك اليوم لنناقش مثل تلك الأشياء، بل لنستوضح منك بعض الأمور، ونعلم أنك ستجيبنا بشكل واضح ودون مواربة.

واستطرد بلهجة أكثر حِدة:

- عَلِمنا أنه تم استدعاؤك من قِبل الأمن في المخيم، ماذا قالوا لك؟ وبماذا أجبت؟ وما هي علاقتك بتلك الفتاة التي تعمل مع منظمات الإغاثة؟ ثم لماذا ذهبت إلى المدينة وتجولت في ذلك الحي الشرقي بالذات؟ أدرك "وليد" أنه بات يخضع لتحقيقٍ جديد على أيدي

من يدّعون تبعيته لهم، فرد بلهجة مطمئنة أوحت بأنه بات يعي ما يدور حوله وما جُلِب من أجله:

- ولمـاذا لا تغير صيغة السـؤال ليكون: هل تذكرت شـيئًا عن ماضيك معنا وأفضيت به إلى ذلك المحقق ثـم ذهبت إلى ذلك الحي في تلـك المدينة المنكوبة لتتأكد من صِدق ما استعدته من ذكريات؟

"مراد" (بابتسامة ماكرة):

- وليكـن.. على العموم نحن نثـق بذكائك، وهدفنا هو حماية قضيتنا، فإذا كنت قد أفشيت بعض المعلومات رغمًا عنك فإنه بإمكاننا معالجة الأمر بأقل الخسائر.

"وليد": اطمئن يا "مراد"، أنا لم أفشِ شيئًا عنكم، لأني ببسـاطة لا أذكركـم ولا أذكـر أنـي رأيتكم قبل الآن، وكلامي معكم منذ البداية لم يكن منـاورة أو خدعـة، وعلاقتي بالفتـاة التي كانت برفقتي علاقة بريئة لا تعنيكم بشيء.

"مراد" (بصوتٍ حازم):

- حسنًا يا "عبد الله"، هذا ما أردنا التأكد منه لمصلحة الجميـع، وعلى كل حال كان لا بد أن نتصل بك بأي وسيلة لكي تأخذ حذرك.

ثـم صمت هنيهـة أكمل بعدها بصـوتٍ تغيرت نغمته لتعود إلى المودة المصطنعة:

- وربمـا يأتـي الوقت المناسـب لكي تعود لنشـاطك

إلـى جانبنا ، بما يناسـب وضعك الجديد في المخيم وصداقتك التي تنمو مع فتاة المنظمة الإغاثية.

لم يجب "وليد" على ما سمعه من "مراد" ، فقد تلعثم لسانه وبدا له أنه على وشـك السـقوط وأن أي إجابة لن تكون في مصلحتـه. أما "مراد" فقد اكتفي منه بالصمت، فلم يطمح إلى انتزاع ردٍّ سريع منه ، واكتفى بأن مهد للخطوات التالية التي سيعيده بها إلى الامتثال لأوامرهم ومخططاتهم ، فأشار إلى الرجلين المنتصبين بجانبه وهو يقول:

- عليكمـا أن تعيداه إلى المخيم من دون أن يشـعر بكم أحـد.. وأنت يا "عبد الله" ، دبِّر أمورك كما تشـاء ، ولا تخشَ شيئًا ، فسوف نكون بجانبك في الوقت المناسب.

وتحرك الرجلان بشكلٍ آلي فأعادا وضع العصابة فوق عيني "وليد" ، فهَم بالاعتراض ، ولكن "مراد" عاجله بقوله:

- هذا إجراء مؤقت.. لاحقًا لن نكون في حاجة إليه.

وهكـذا أعـادوا "وليد" إلـى المكان الـذي اختطفوه منـه ، ليمضـي بعـد ذلك إلـى خيمتـه مُحطَّم الأعصاب مشـوش الفكـر ، بعـد أن أدرك أنـه كان أحـد أفـراد الميليشـيا الطائفيـة التي أذاقت الويلات لمن يشـاركوه الخيمة والمخيم ، والذين كانوا يومًا ما يشكلون أغلبية سكان المدينة الكبيرة وما يجاورها من مدن.

* * *

﴿10﴾

رفع العِصابة من فوق عينيه فأدرك أنهم تركوه في المكان الذي اختطفوه منه واختفوا بنفس السرعة التي ظهروا بها أمامه.

كان الليل مازال يسدل أستاره الكثيفة على أنفاس المخيم، أضواء النجوم باهتة ومرتعشة والقمر ينظر إلى الأرض بوجهٍ مظلم، هل عَلِم كل هؤلاء بسِرّه الخفي ويودون صب لعناتهم عليه، رائحة الماء الآسن تغزو أنفاسه فلا يأبه لها ويستمر في سيره غير متحاش لتلك البِرك الطينية التي تسقط فيها قدماه فينزعهما ويُكمِل سيره بأقدام موحلة.

يتوقف فجأة وقد انفجر سؤالٌ مباغت في عقلِه: ترى بأي وجه سيلقى شريكيه في الخيمة؟ هل ما زالا يجتران ذكرياتهما الأليمة؟ وما فعلته بهما الميليشيات الطائفية؟

و"مريم" حين يلقاها هل سيخبرها بحقيقة شخصيته التي كان يبحث عنها؟ هل سيخر تحت أقدامها طالبًا منها الصفح؟ أم سيختفي من حياتها للأبد؟

أوشك أن يُجهش بالبكاء، غير أنه تمالك نفسه وأستأنف سيره مُزيحًا تلك الأفكار والهواجس عن عقلِه، حتى لاحت له خيمة ملجئه فأبصرها مُحاصَرة

بشـريط تحذيري لـم يتبين ما كُتِب عليـه، وعلى مقربة منها وقف رجلٌ يرتدي زي الأطقم الطبية بدا أنه ينتظره، فلما اقترب منه أكثر أردفه الرجل بقوله:

- هل أنت ثالث ساكني تلك الخيمة؟

"وليد"، وهو يدور بعينيه في المكان محاولاً استطلاع ما يحدث دون جدوى: نعم أنا!

الرجـل وكأنـه لم يكن ينتظر سـوى ذلـك التأكيد ليُخـرِج هاتفه ويُجري اتصالاً ثم ينظر إلى "وليد" بإشـفاق وهو يقول:

- لقـد أُصيب زميلاك في الخيمـة بالوباء، وتم نقلهما للمشفى، وسوف تأتي سيارة الإسعاف حالاً لتأخذك حتى نجري لك الفحوص اللازمة للاطمئنان عليك.

كان وقع الخبر عليه مؤلِمًا جعله يتوقف مكانه لائذًا بالصمت، وقد ملأه شـعور بأن تلك الليلة تأبى أن تنقضي قبل أن تصب فوق رأسه مزيدًا من المفاجآت.

لـم يمـض وقـتٌ طويـل حتى بـرزت سـيارة الإسـعاف لتتوقـف فاتحـة أبوابها فـي نهاية الطريـق الضيق، حيث لا تسـتطيع التقدم بعدهـا، فيتجه نحوهـا "وليد" ويدلف داخلها مستسلمًا.

* * *

(11)

الدوار ما يفتأ يتسلل إلى رأسه كمقدمة لحُمَّى تبدو على وشك أن تهاجم جسده النحيل، يُحسّ بصدرِه يضيق به وكأن هناك من يجثم عليه محاولاً تحطيم ضلوعه، يفتح عينيه بصعوبة فيلمحهما راقدين على سريرين متجاورين كما كانا في الخيمة تمامًا، تعلوهما سماء أسمنتية داكنة لم يتم طلاؤها بعد تُشكل سقف الغرفة الثالثة على يمين الداخل إلى المستشفى الذي تم تجهيزه على عجل لعزل وعلاج المصابين بالوباء. يحاول استرجاع ما جرى معه منذ أن استقل سيارة الإسعاف، حين تأكدت إصابته بالعدوى ندم على أنه لم يقتنِ هاتفًا نقالاً ليُهاتِف به "مريم" ويطمئن عليها كونها خالطته وربما انتقلت إليها العدوى منه، هي التي كانت تخطط لمساعدة المصابين، ترى هل عَلِمَت بما جرى له؟ يُدرِك خطورة معرفة أنها كانت بصحبته، ربما هدد ذلك حياتها أكثر من الوباء.

تزداد آلامه فيعاود النظر إلى سقف الغرفة القاتم، فيتمنى لو أنه يستطيع الخروج والنظر إلى السماء الحية، ترى هل هي صافية كما كان يُحِب أن يراها دائمًا أم مُلبَّدة بالغيوم كالأيام الخالية؟ تعاوده الآلام فيُغمِض

عينيه مُستسلِمًا، فيُشرِق في قلبه ضوء مبهر ويُبصِر عالمًا آخر.. كيف حدث ذلك؟ وفي أي زمان هو؟ لم يعد يدري، فقط تختفي ظِلال الأشياء من حولِه وتتغير معالم المكان، لا أسِّرة ولا مشفى ولا وباء، حتى الخيام والبِرك التي لا تفارقها المياه الآسنة في الخارج، وتلك العيون المُتلصِّصة التي يشعر بها في كل مكان تختفي جميعها ولا يصبح لها وجود، إنهما في تلة مرتفعة تنبت فيها أشجار سامقة وأخرى فواحة العِطر وثالثة تتدلى ثمارها، لا يلمح أثرًا لسكان المخيم أو غيرهم، فقط هو وهي لا يتبعهما سوى ظليهما، يلهوان بين الأشجار ويقطفان الثمار ويرتديان الملابس المُزركَشة، ولكن حديقتهما الوارفة يحيط بها حاجز مرتفع؛ لقد عرفه من أول وهلة، إنه سور المخيم القاتم، تساءل بأسى: لماذا بقي مكانه؟ ثم أشار بيده وهو يقول بصوتٍ حالم:

- انظري إلى تلك الطيور ترفرف أجنحتُها بحرية في أي سماء أرادت، وهذه الوعول البرية حين تضرب جدار السور بقرونها الحادة فإنه ما يلبث أن يختفي كأنه وَهمٌ عابر، فتمرح في الخارج كيف تشاء، أما نحن فينبغي أن تكبلنا الأسوار.

حاولت أن تخفف عنه وتذكره بأن شرط بقائهما في تلك النعمة أن يبتعدا عن حد السور، فرد عليها بصوتٍ واثق:

- يا حبيبة القلب، لا نعمة بين قيود الأسوار.

أمسك يدها ، وفي لحظات اخترقا الحاجز فأحس بعبير الحرية يُنعِش روحه التواقة ، وبيده وهي تحتضن يدها وهما يهبطان من أعلى التلة الموعودة عاريين تمامًا ، ومنطلقين كتلك الطيور الجارحة التي شاهداها تملأ جو السماء بعد أن اقترفا الخطيئة الأولى.

قال لها وقلبه مُفعَم بالنشوة:

- صدقيني ، لقد فعلت ذلك عمدًا لا سهوًا ، كنت أريد أن أغادر تلك التلة بأي ثمن ، لم أكن أرغب في أن أبقى أسير الملابس المُزركَشة والثمار الجاهزة.

هي بعيونٍ متوجسة وقد غدا جسدها عاريًا تمامًا وشعرها الذهبي منطلقًا من فوق رأسها تكاد تلمس حوافه الأرض من خلفها ، بينما قدماها الحافيتان تحاولان تفادي تلك النتوء الصخرية الجارحة التي تعترض طريق هبوطهما :

- الآن بات علينا أن نشقى ويصبح مسكننا تلك الكهوف المُوحِشة ، وأن نطارد الوعول والوحوش لكي نحظى بالحياة.

هو (بصوتٍ حالم):

- من أجلك سأغدو صيادًا ماهرًا أعدو في البرية كل صباح ، وحين يحِل الليل سيكون الكهف المظلم ملجأنا نحيا فيه بدفء الحُب ونور الحرية الساكن في أعماق القلب.

اختفى الضوء المُشرِق، وشعر بالارتجاف يعود ليهز خلايا جسده من جديد، فتح عينيه بصعوبة ليجد سقف الغُرفة القاتم.. وصوت هزيل يناديه: "وليد" كيف أنت الآن؟

عرف الصوت، إنه لـ"كرام" شريكه في الخيمة والوباء.

أجابه "وليد" بصوتٍ واهِن:

- أنا بخير.. ثم اتجهت عيناه بشكل تلقائي إلى السرير الثالث، فوجده خاليًا فأردف وعلى وجهه ابتسامة واهنة: هل شفي "سعدون" وغادر تاركًا إياك بصحبة الضيف الثقيل.

التفت "كرام" إلى حيث أشار، ثم رمق "وليد" بنظرة حزينة، وقال بنبرة يملؤها الأسى:

- لقد مضى عليك يومان غائبًا عن دنيانا، وبالأمس رحل "سعدون" فعلاً، ولكن إلى مكان أفضل؛ لم يعد مُطارَدًا من الطائفيين أو الإرهابيين أو مُدّعي الحرية، الآن هو في أرض السلام ينظر إلينا من علٍ.

أدرك "وليد" أن الرجل قد مات، فأسف لتلك النهاية، وقال وهو يجاهد لكي تخرج نبرات صوته مُفعَمة بالأمل الكاذب:

- ولكنك ستشفى وتظل هنا في أرض الشقاء، وحين تبلغ من العمر أرذله سوف تقص على أبنائك وأحفادك كيف نجوت بحياتك من تلك الأيام العصيبة.

أردف "كرام"، وقد كادت تطفر من عينه دمعة

ساخنة ولكنه قمعها بسرعة:

- هل تعني أن القدر يمكنه أن يمنحني مرة أخرى طفلتين مثل نائلة وسمية أمنحهما الحُب ويمنحاني السعادة، أقرأ لهما دروس المُطالعة التي تفيض بحُب الأوطان وبطولة الحكام ثم تكون النهاية المفجعة؟

"وليد" بنظرةٍ حيرى:

- هل فقدت ابنتيك في تلك الحرب المجنونة.

"كرام" بابتسامة باهتة:

- روحك طيبة يا "وليد".. أُومن بهذا وأعلم أن قلبك المُجهَد يخشى الاستماع إلى مآسي الآخرين، وربما كنت مصيبًا في هروبك الدائم من صحبتنا في الخيمة وخلوتك إلى نفسك.

"وليد"، وقد اعتدل بصعوبة واضعًا وسادة خلف ظهره لتحول بين جسده وبين الانزلاق مرة أخرى إلى وضعية الرقاد:

- ولكني الآن لن أستطيع الهرب، وأود أن أسمع قصتك.

"كرام"، وقد اضطرب وجهه وزاغت عيناه وقال بصوتٍ بدا أنه يخرج من أعماق قلبه المكلوم:

- كان لدي أسرتي الصغيرة؛ زوجتي الحبيبة رغد وبنتان توأمان نائلة وسمية، لم يكن عمرهما يتجاوز السنوات السبع، لم تكونا تكفَّان عن اللهو والمرح ومشاكسة كلب جارنا "مراد"، كنا نعيش في بيتٍ من طابقين

بخـلاف القبو؛ ورثتـه عن أبي، تُطِل نوافذه على شـارع الفيحاء المحفوف بأشـجار النخيـل والنارنج، ومدخله في شـارع المنصـور الذي يصـل إلى الميـدان الكبير مـن جهتـه الشـمالية. وبعـد إصابتـه بقذيفـة أطلقتهـا الميليشـيات لـم يبقَ سـوى القبو وثـلاث حوائط مائلة، وهو ما أتاح لنا أن نرصد ما يدور حولنا بحذر، قبل ذلك كُنـت أعمـل موظفًـا حكوميًّا أتقاضـى راتبًا يكفي بالكاد مُتطلبات الحياة الضرورية. كنت أرى الفسـاد يضـرب بأطنابه في المؤسَّسـة التي أعمل بها، شـأنها شـأن كل مناحي الحياة التي تحيط بنا، وأصمت ظنًا منـي أني بذلك أنجو بحياتي ووظيفتـي من مصيرٍ قاتم لـكل من يفتح فمه ولو بمجرد التلميح، وبعد أن فقدنا البيـت الـذي كان يؤوينـا فكرنـا أن نلجأ إلـى جارنا "مراد" الذي نجا منزله من القصف، لم يمانع الرجل ولا زوجته التـي حُرِمت من إنجاب الأطفال؛ فكانت دائمة العطـف على نائلة وسـمية، الميليشـيات ظلت تحاصر الحي بعِلم السـلطة وربما بمشـاركتها الخفية، ومزيد مـن البيوت تُهدَم فوق رؤوس سـاكنيها كأنهم كانوا يعرفـون أهدافهم جيدًا، فكل بيتٍ هُدِم كان له رجل أو أكثر من المدافعين عن الحي، حتى أنا رغم أني لم أحمل السـلاح يومًا إلا أني كنت أُوقِن أني كنت على رأس أهدافهم وهم يسـتعدون لاقتحام الحي، هل تدري

لماذا يا "وليد" كنت من أهدافهم الثمينة؟

قال "كرام" جملته الأخيرة وهو يُمعِن النظر في عيني "وليد"، ربما ليطمئن أنه مازال منتبهًا له راغبًا في أن يواصل سرد سيرته، فكانت ايماءة "وليد" المُنهَكة تحثه على أن يُكمِل ما بدأ دافعًا له أن يواصل، فقال مستطردًا:

- قبل اشتعال الثورة كنت خاملاً يائسًا منطويًا على نفسي، خائفًا على بيتي ووظيفتي كما أسلفتُ لك، غير أنه كان هناك جانب مني ليس عاديًا؛ فقد كُنت أُدرِك أن الله حباني بموهبة الشعر فكنت أنظمه وأبث في قصائده بعض حيرتي ومخاوفي، ولم تكن تتجاوز تلك القصائد حدود دائرة صغيرة من الأصدقاء والأقرباء، غير أن الأمر انقلب تمامًا حين خرج الناس مُطالبين بالحرية والعدل، فتقمصتني روح الثورة وهتفت مُعلِنًا محبتي للحرية ونبذي للقمع والقتل والتشريد، وبدأت قصائدي تأخذ منحىً آخر، اشتعلت حماسًا وألهبت حناجر الثائرين، وسرعان ما حلقت قصائدي مُغادِرة الحي إلى ثوار الأحياء المجاورة ثم إلى المُدن المجاورة، هكذا كانت تصلني الأنباء تباعًا فأشعر وكأني صِرتُ إنسانًا آخر لا يربطه بمخاوفه القديمة إلا الخشية من أن تنقلب الأمور ويُهزَم الثوار أو يتصارعوا قبل أن تستقر أو تنتصر ثورتهم، شأن الثوار على مر العصور.

وحدث ما كنت أخشاه، في البداية كانت أحلامنا عريضة ولم ننتبه أن الأعداء كُثر وأن المخاطر جَمة، ثم اكتشفنا أن الثورة مُخترَقة أو ربما نجح أعداؤها في بث الفُرقة بين أبنائها. خرج البعض مُدَّعيًا أن الثورة ستكون في صالح طائفة وسيقلل نجاحها من شأن طوائف أخرى، ثم ظهرت أصوات كانت هامسة في البداية، ثم استحالت صراخًا وعويلاً، بأننا كنا نعيش آمنين، وإن كان أمنًا تحت مقصلة الخوف، واستقرارًا تمور من تحته براكين النقمة، ولكن ذلك لم يمنعنا من الهتاف ولم يمنعهم من حمل السلاح ومُحاصَرة الحي وهدمه فوق رؤوس ساكنيه، فتوارت حينها أحلام الحرية تحت أقدام الرغبة في الحفاظ على الصغار ومواصلة الحياة، لحين التمكن من فك الحصار أو النجاح في الهرب من الحي إلى مكانٍ أكثر أمنًا، وكان اليوم الأول في منزل جارنا "مراد" فياضًا بمشاعر الود وأصبحنا أقرب إلى الرجل وأسرته من ذي قبل.. تستطيع أن تقول إننا لم نعد أسرتين في منزلٍ واحد، بل أسرة واحدة يجمعها منزل واحد، وبعد مرور عِدة أيام وحين حل الليل وغرق الحي في ظلام دامس لانقطاع التيار الكهربائي معظم اليوم، تجمعنا كالعادة حول المائدة في ضوء شموعٍ هزيلة

تضخمت على إثرها ظلالنا فبدونا كمردة عملاقة تلتف حول مائدة خرافية، وباغتني "مراد" بسؤاله الذي ألقاه بشكل عابر: "كرام" هل ما زلت تنظم الشعر؟ توقفت عن مضغ اللقيمات ونظرت له وكأني سمعته يقول: هل ما زلت تتنفس؟ فاستطرد بسرعة وهو يصنع ابتسامة خجولة ليقول: أقصد أن عليك ألا تتوقف عن إشهار سيف الكلمات في وجه أولئك الطغاة اللذين يحاصرون الحي، فأردفتُ دون تردد: قصيدتي الجديدة سوف تطير الليلة عابرة حيَّنا المُحاصَر إلى أولئك المُحاصَرين مثلنا في كل مكان فتشد من أزرهم ويتردد صداها حتى تقض مضاجع الطائفيين وأمثالهم. تهلل وجه "مراد" وأثنت عليَّ زوجته ورفعت أيديها بالدعاء، وقال "مراد" والابتسامة لا تفارق شفتيه: إذن أنت على معرفة واتصال بالثوار في الأحياء والمُدن المجاورة التي يتشرف بها أبناء حيّنا المتواضع فهنيئًا لك.

تبادلنا الضحكات، قبل أن تتناهى إلى سمعنا أصوات طلقات متفرقة ودوي انفجارات قريبة ألجمت أصواتنا وجعلت نائلة وسمية تلتصقان بي كما كان يحدث في منزلنا الذي دُمِر، ولكن "مراد" عَقَب قائلاً: لا تقلقوا.. فقط علينا أن ننزل إلى القبو إلى أن ينتهي القصف وتمر الليلة بسلام.

قالها بثقة لم أعرف حينها مصدرها، ولكني أدركته بعد ذلك صدفة، ولك أن تخمن كيف؟!

وانسلت من عينه دمعة بادله على أثرها "وليد" بنظرة مُستفهِمة جعلته يستأنف بصوتٍ تملؤه المرارة:

- لقد شاهدته يعبث بهاتفي ويسجل أرقام الهواتف التي أتصِلُ بها، وينقل ما كتبته من قصائد، ثم يهاتف من يحاصرون الحي ويخبرهم بأن الصيد أصبح تحت سيطرته في المنزل إلى أن يقتحموا الحي ويستجوبوه.

"وليد" بصوت أسيف: وكنت أنت الصيد الذي يقصده.

"كرام": نعم؛ كان الرجل مُتطرّفًا وكان كل شيء مُخطَّطًا؛ قصفُ منزلي ثم دفعي للجوء إليه، لم أكن أتخيل أن جاري ذا المظهر الطيب يخفي في قلبه طائفية مقيتة، وكان عليَّ الهرب في أقرب فرصة دون أن يشعر وقبل أن تتمكن المليشيات من اقتحام الحي.

وحانت الفرصة وتسللنا، بينما كان "مراد" وزوجته يغطان في نوم عميق مطمئنين إلى أننا في الغُرفة المجاورة غافلين عما يحيق بنا.. تحركنا بحذر؛ أنا في المقدمة ورغد خلفي تُمسِك بيدَي نائلة وسمية. كانت أصوات القذائف التي مازالت تنهال على الحي بشكلٍ متقطع تجرح سكون الليل، ورياح

ساخنة تلفح وجوهنا وكأننا في سقر، غير أننا لم نكن ندري أي ذنبٍ اقترفنا لننال ذاك العقاب، أتكون مطالبتنا بأن نختار من يحكمنا بملء إرادتنا هي الذنب الأكبر الذي يعاقبوننا من أجله؟!

واصلنا تقدمنا بحذر تحت سماء توسطها قمر في طور البدر جعل من أسرتي الصغيرة هدفًا سهل المنال لأولئك المتربصين بالحي، فانهالت القذائف باتجاهنا.. أسرِعوا، أسرِعوا، هكذا كنت أصرخ والموت يُحاصِرنا إلى أن ظفر بأسرتي وتركني جسدًا بلا روح، كل ما بقي لي ذكريات أجترُّها وأعيد روايتها لنفسي أو لغيري، إن سنحت الفرصة، ظللت بعدها في ضيافة شاب شجاع عاشق للحرية، كان يساعدني في نشر قصائدي إلى أن اختفى هو الأخر تاركًا لي منزله ودفترًا صغيرًا يخصه، ثم فقدت كلاهما كما فقدت أشياءً كثيرة في حياتي، ولكني على ثقة بأني سأعثر عليه، أو بالأحرى سيعثر هو على نفسه، وربما استعاد كلانا روحه المفقودة.

اجتاح "وليد" طوفانٌ من المشاعر المتضاربة، وهَمّ بأن يعترف لـ"كرام" بأنه كان ينتمي لإحدى فرق المتطرفين ويطلب منه أن ينتقم منه ويريحه من عذاباته، ولكن شيئًا ما همس في قلبه بأن يتريث ويلوذ بالصمت الحزين، فبادره "كرام" وقد شعر بتأثر "وليد" قائلاً:

- لقد أثقلتُ عليك يا رفيق الخيمة والمرض، وعليَّ

الآن أن أُخفِّف عنك.. ولكن كيف؟

ولم ينتظر تعقيب "وليد"، ولكنه أشار مباشرة إلى السرير الخالي بجوار النافذة الوحيدة وقال:

- سوف يكون هذا مكان فراشك حتى تشفى بإذن اللّه.

عندئذٍ تهلل وجه "وليد"، وأدرك أن بإمكانه الآن أن يُمتِّع عينيه بالنظر إلى صفحة السماء ورؤية الطيور الطليقة.

فتح "وليد" النافذة ليتنسم هواءً جديدًا ويسرح بعقله فيما قد تخبئه الأيام المقبلة من أحداث.

* * *

﴿12﴾

مرت عِدة أيام عانى فيها "وليد" آلام الجسد والروح حتى تماثل جسده للشفاء، وكانت سعادته بالغة بشفاء "كرام" هو الآخر، وذات صباح مُشمِس أخبره الطبيب بإمكانية مغادرته المشفى، وقدَّم له باقةً ورد قائلاً له: تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها باقة ورد فواحة مثل تلك منذ قَدِمتُ إلى هنا قبل شهور طويلة. وتابع بابتسامة مرحة:

- يبدو أنك ذو أهمية وخطورة حتى تُجلَب لك مثل تلك الهدية الطازجة من المدينة رأسًا إلى مخيمنا البائس.

تناول "وليد" الزهور وقرأ الورقة المُعلَّقة بعناية بينها:

- عَلِمنا بتمام شفائك؛ ننتظر خروجك سالمًا.

حينها نظر "وليد" إلى الطبيب، وقال بلهجة متسائلة:

- مَن أحضر تلك الباقة؟

فأجاب الطبيب قائلاً:

- أحضرها لك رجل أنيق، ثم غادر قبل أن يخبرنا عن هُويته.

لم يُعقِّب "وليد"، بل دوّى في رأسه تساؤل:

- ترى هل هُم الطائفيون الذي كان ينتمي إليهم -حسب قولهم- ينتظرونه ليواصل ما كان عليه

معهم وليكون عينهم في المخيم؟ أم تراها "مريم" لم تشأ أن تظهر في العَلن وآثرت أن ترسل له تلك الهدية المُعبِّرة لتخبره بأنها مازالت تنتظره وأنها لم تغفل عن متابعة حالته، من دون أن يشعر بها أحد؟

ارتاحت نفسه لهذا الخاطر، وتمنى أن يكون هو الحقيقي.

بعد ساعات قليلة، غادر "وليد" و"كرام" مستشفى العزل قاصدَين خيمتهما الأولى، وقد آثر "وليد" ألا يخبر "كرام" بأي شيء عن ماضيه، وبقي جلّ همه أن يصل إلى "مريم" بأسرع ما يمكن. حين وصلا إلى الخيمة كانت الشمس قد توسطت قبة السماء، فصبت حِممها على رؤوس الخيام المتهاوية فأضحت وكأنها أفران صُنِعَت خصيصًا لصهر الأجساد البشرية.

قال "وليد"، وهو يُلقي بجسده على الفراش المهترئ الذي يتوسط أرضية الخيمة الصلدة:

- هذا أمرٌ لا يُحتمَل، حتى الماء لا يتوفر لكي نغسل أجسادنا ونروي حناجرنا العطشى.

أطرق "كرام" هنيهة وعينه معلقة على الفراش الخالي الذي كان يتوسده "سعدون"، ثم قال:

- هذا حالنا نحن، فما بال الأطفال الصغار؛ ترى ماذا حل بهم في هذا الطقس؟

لم يرد "وليد" عليه، بل هرول خارجًا وقد ترقرقت

عيناه بالدموع، كان يعرف وجهته جيدًا تلك المرة، فأخذ طريقه مباشرة نحو منظمة الإغاثة، كانت بِرك المياه المنتشرة في طرقات وزوايا المخيم قد اختفت بفعل الموجة الحارة المفاجئة التي اجتاحت الدنيا، ويبدو أنها ركزت جام لهيبها على هذا المكان النائي، ورغم ذلك مازالت بقايا من روائح كريهة تُكدِّر هواء المخيم!

تذكر ذلك الدفتر الرمادي الذي بحوزته، والذي عثر عليه الفريق الطبي الذي تولي تعقيم الخيمة مُخبأً أسفل وسادة "كرام"، الذي كان قد سقط من الإعياء قبل أن يعود إلى الخيمة، وهو من نبه الأطباء إلى إصابته، وحال دون تمكن "كرام" من أخذ الدفتر معه، وفكر بأن عليه أن يعيده إليه عند عودته من منظمة الإغاثة، وتخيل سعادته عندما يعلم بأنه لم يفقده إلى الأبد كما كان يتصور.

واصل "وليد" سيره وقد اقتحمت مخيلته صورة "مريم"، فانزاحت على الفور الروائح العطنة وتشبّع الهواء برائحة باقة الزهور، فغدا حائرًا يسبح في عالم متناقض يتجلى فيه وجه الحبيبة المُفعَم بالأمل تجاورهُ صورة الصغار المرضى والعطشى.

وصل إلى مشارف مبنى منظمة الإغاثة، كانت الساحة الصغيرة التي تحيط به خاوية إلا من بضع صناديق خشبية دُوّنت عليها الأصناف التي بداخلها من مستلزمات الإغاثة، وسيارة بدا أنها قَدِمت للتو، إذ احتشد حولها شباب وفتيات

يرتدون زي المنظمة وبدأوا في إفراغ حمولتها، وكانت هي بينهم منهمكة في توجيه زملائها ومعاونتهم كقائد يهتم بإنجاز المهمة بسرعة وكفاءة، فالجوعى والعطشى في انتظار توزيع تلك المساعدات القليلة.

ظل واقفًا يتابعها بصمت إلى أن التفتت ناحيته فأبصرته يرمقها بعين مازالت آثار الإجهاد تملؤها، وإن كانت تفيض حنانًا تجاهها، أسرعت إليه بوجه توَرّد فجأة وقالت: حمدًا لله على سلامتك. واستطردت، وهي تقبض على يده لينتحيا مبتعدين عن ضجيج السيارة ومَن حولَها:

- لا تتصور كم أنا سعيدة الآن! لو كنت أعلم بخروجك اليوم لانتظرتك على باب المشفى.

امتقع وجه "وليد" وقد أيقن أن "مريم" ليست هي من أرسل إليه باقة الزهور، وبات الاحتمال الآخر هو الأكثر ترجيحًا، ولكنه تمالك نفسه بسرعة، وكسا وجهه بابتسامة مصطنعة ثم أردف قائلاً:

- لدي الكثير لأقوله لكِ، ولكنّ العاجل منه هو أني أرغب في الانضمام إلى فريق المتطوعين داخل ذلك المبنى.

أومأت بالإيجاب، ثم قالت:

ـ حسنًا إذن ستكون قريبًا مني، وسيكون لديك هاتف نقال لتتواصل به معي ومع زملائك في المنظمة، ولكن عليك أن تكون حذِرًا فأنت

مازلت في فترة النقاهة، والعمل هنا يتم في ظروف صعبة أبسطها درجة الحرارة التي تتفاوت بسرعة خلال اليوم الواحد.

اقترب منها أكثر واحتضنت يداه راحتيها فأحست بشعور لم تألفه من قبل.

قال لها بصوتٍ هامس:

- كأني أعرفك قبل سنين، وربما قبل أن يُوجَد العالم.

تهلل وجهها بابتسامة رضا، فاستطرد من دون أن يرفع عينيه عن عينيها أو يأبه بنظرات العابرين والمتطفلين:

- سترين الآن أني لا أقِل حماسة عنهم..

واندفع بسرعة بحركة مباغتة لينضم للشباب والفتيات الذين لا يزالون منهمكين في تفريغ عربة المساعدات، فلحقت به على الفور وهي تضحك بصوتٍ مرتفع غير عابئة بما يمكن أن يخطر في عقول بعض المتطوعين عند رؤيتهم ذلك المشهد.

كانت هذه هي بداية ولوج "وليد" إلى عالم أكثر التصاقًا بأهل المخيم، وكأنه وُلِد من جديد بخلاف ولادته الأولى التي مازالت مسربلة بحُجب النسيان، وولادته الثانية في المشفى الميداني في المدينة.

لم تعد "مريم" تغيب عن عينيه إلا سويعات قليلة عند النوم، ورغم ذلك فقد آثر ألا يبوح لها بأمر لقائه بقائد

الميليشيا أو باقة الزهور المجهولة التي أُرسِلَت إليه.

غـادر "وليـد" منظمة الإغاثـة بعد يوم طويـل من العمل شاهد فيه الكثير من النازحين الذين يعمل في خدمتهم، وشـاهدته عيـون كثيـرة ظـن أن بعضهـا كان يترصـد أنفاسه ويعِد عليه خطواته، ولكنه واصل سيره المتمهل بين دروب المخيم دون توقف، حتى وَلج إلى جوف الخيمة وأبصر رفيقه يغط في نوم عميق، فمد يده وأخرج الدفتر الرمـادي الذي يحوي تلكً الأوراق المُبهمة، وهَمّ أن يُوقِظ "كـرام" ويعطيه إياه بعد أن يعتذر له لأنه لم يُخبره بوجود الدفتر معه، غير أنه تراجع وقرر أن يتركه نائمًا على أن يُعلِمه في وقتٍ لاحق.

* * *

(13)

النهار على وشك الاحتضار، الشمس تهبط ببطء خلف السور الغربي للمُخيم، "مريم" جالسة خلف مكتبها الصغير منذ الصباح، لم ترغب في الخروج من غرفتها المُطِلة على فناء المبنى الكبير، النافذة المواجِهة لها مفتوحة تمامًا رغم صعوبة الطقس ونسمات الهواء الباردة التي تقفز منها وتلسع وجهها البض، فلا يثنيها ذلك عن تعلق بصرها ببوابة المبنى؛ تنظر إليه بعيون راجية أضناها الأرق، فتبصر جموع الداخلين والخارجين من فقراء المُخيم وعمال الإغاثة دون أن يكون هو بينهم.

ليومين كاملين لم يأتِ للمنظمة أو يرد على هاتفها، وحين تجرأت وذهبت إليه في خيمته أخبرها "كرام" بأنه هو أيضًا لا يعلم شيئًا عنه منذ ليلتين.

الأفكار تتناطح داخل رأسها، فتميل إلى الخلف بجسدها المُنهَك وقد أرخت جفنيها، محاولةً استرجاع الأحداث الماضية علَّها تجد سببًا للتغير المفاجئ الذي أصاب "وليد"، كان قد اندمج في مساعدة النازحين رغم معاناته مثلهم، كان وجهه يشِّع بالراحة والأمل كلما قاد سيارة مساعدات وشارك في حمل محتوياتها وتوزيعها على الأُسر النازحة التي كاد يُهلِكها تَقلُّب المناخ ونُدرة المساعدات.

كان يبتسم في وجهها كلما آب إليها في مبنى الإغاثة أو ذهب إلى باب خيمتها يتصنع الحجج الواهية لكي يراها ، حتى كادت أن تعترف له بالسر الذي أخفته عنه وكان يُثقِل قلبها ، غير أن ما بدر منه قبل أن يختفي جعلها تتريث.. الملامح المطمئنة تبدلت، حَدَّثها عن فقدانه الثقة بكل شيء ، فأجابته بأن هذا شأنه منذ عرفته أمام خيمتها قبل أسابيع ، وأن هذا طبيعي ومفهوم لشخص مثله لم يعثر على هُويته السابقة ولا يدري شيئًا عن ماضيه ، فأجابها بأنه سئم المخيم وأنه يفكر في تجاوز الأسوار وعبور الصحراء ومن خلفها البحر واللحاق بطابور اللاجئين إلى أوربا ، فربما تمكن هناك من بدء حياةٍ جديدة. طلب منها أن ترافقه وتترك كل شيء خلفها.

حينها صمتت قليلاً ثم انفجرت كبركان ثار بعد طول خمود ، قالت له إن أوربا جنته الموعودة التي يريد الهروب إليها قد تركتها هي بمحض إرادتها ولن تعود إليها وتتخلي عن هؤلاء الناس التي شعرت بينهم بأن حياتها قد غدا لها قيمة ومعنى. قالت له إن حياته كلها ألغاز منذ عرفته ، القتيل الذي قُتِل بجوار خيمته ولم يُعثّر على قاتله إلى الآن، إصراره على الذهاب إلى المدينة ومحاولة قتله هو وهي ببندقية قناص لم تعرف كيف عرف بوجودهم هناك، رغم كل احتياطاتهما في التنكر ، وأخيرًا تغيره المفاجئ ورغبته في الهروب وترك كل شيء خلفه.

سمعها بأذنٍ مُصغية ووجهٍ شاحب، لم يرد عليها ببنت شفة، فقط استدار وغادر في صمت.

والآن ماذا عليها أن تفعل، هل تذهب إليهم وتخبرهم بما جرى؟ سوف يخبرونها بأن قواعد اللعبة قد تغيرت وأنها وقعت في المحظور، كان عليها أن تتأكد من نوايا ذلك الغامض الذي عُثِر عليه بين أطلال المدينة المُهدَّمة لا أن تُحبه حد الجنون.

هل أخطأت منذ البداية عندما وافقت أن تلعب دورًا لم يكن أبدًا من مهامها، لقد قَدِمَت إلى هنا لمساعدة النازحين الفارين من جحيم القتال، لا لتقوم بدور مُحقِّق أمني أو عميل يُوقِع بالجواسيس أو المتطرفين، ولكنها تذكرت كيف أقنعوها بأن الهدف ليس سوى التأكد من أن ذلك الرجل لا يُخفي شيئًا يمكن أن يهدد حياة النازحين البؤساء في المخيم، وهو ما يتفق مع ما تؤمن به ولأجله تطوعت في تلك المنظمة، حينها فقط وافقت ولم تتردد في اتباع الخطة التي وُضِعَت بدقة في مكتب الأمن الذي يتبع المنظمة الدولية التي أنشأت المخيم؛ اختاروا لها خيمة قريبة من سكنه حتى يمكنها مراقبة تحركاته، وكان عليها أن تجد مبررًا لتتعرف عليه، لكنه فاجأها ذاك الصباح بوقوفه أمامها ومبادرته لها بالكلام، حينها لم تضيع وقتًا وتصرفت بتلقائية، وشعرت بغريزة الأنثى بأنه سيعود حتمًا ولن يكون

اللقاء الأول هو الأخير، ثم تعلق قلبها به سريعًا رغمًا عن إرادتها، حتى قبل أن تتأكد من هُويته الحقيقية، وها هو الآن يضيع من بين يديها كحُلم عابر تحاول التشبث بكل تفاصيله وتستعيده في عقلها مرة بعد مرة، وهي جالسة تنتظر معجزة تخرجها من تلك الحالة.

انتبهت من شرودها على صوت طرقات خفيفة على الباب تألفها أذنها، رقص قلبها فرحًا قبل أن يعتدل جسدها في جلسته ويرتفع صوتها سامحًا بالدخول، كان الطارق "وليد"، أقبل إليها بينما البوابة تحتشد بالمغادرين للمبنى بعد انتهاء الدوام اليومي، جلس على المقعد المقابل لها ثم قال، بعد أن رمقها بعينين حزينتين:

- أعلم أني تأخرت كثيرًا، علمت أنك بحثت عني كثيرًا، في الحقيقة مرت عليَّ ليال ثقيلة آثرت فيها أن أخلو بنفسي، وإن كنت أعلم أن هناك عيونًا لا تنفك تترصدني أينما وليت.

دعته للجلوس بإشارة من يدها ونظرة حانية من عينيها ثم قالت: أما زلت تنوي الرحيل؟

- الرحيل كلمة أشعر بها تتغلغل في أعماقي النائية، تدب في كياني المجهول، تدفعني دفعًا للهروب من ذاك السجن الذي تسمونه مُخيم نزوح، ولكني الآن قررتُ أن أنتظر قليلاً، على الأقل حتى تعلمي أشياء أخفيتها عنك وكان يجب أن أُخبِرك بها، لولا

خوفي من فقدِك أو تعريض حياتك للخطر.

بدأ على وجهها الاستغراب، ولكنها تمالكت نفسها وانتصبت واقفة لتستطلع الفناء خارج النافذة، فلما اطمأنت أنه يكاد يخلو من الناس قالت بصوتٍ جاهدت أن يخرج هادئًا: حسنًا، تكلّمْ.

وبدأ "وليد" يسرد ما كان من أمره من لحظة اختطافه من قِبل الميليشيات إلى دخوله المستشفى مُصابًا بالوباء وخروجه معافًى منه، ثم صمت وهو يتمعن في ملامح وجهها ليلتقط ردة فعلها.

لم يكن وجه "مريم" ينمّ عن شيء، كانت ملامحها جامدة كتمثال فرعوني عتيق، بينما داخلها يمور بمشاعر متباينة اختلط فيها الحنق بالحيرة، فها هو الرجل الذي أحبته يصرح لها بأنه كان يومًا متطرفًا وربما قاتلاً أيضًا، ها هو ذا الماضي الذي كان يبحث عنه يُكشِّر عن أنيابه ويُبرِز أظفاره المُلطَخة بدم الأبرياء، ماذا عليها أن تفعل؟ تنتقم منه وتفشي سره، أم تمنحه فرصة أخرى للحياة؟

مازال الصمت يخيم على الغُرفة، والرياح الباردة تُزمجِر في الخارج، وخلو الفناء يذكرهما بأن أوان مغادرة المنظمة قد حان.

حدثته نفسه المُتعَبة:

- هل ستقسو عليه "مريم"؟ هل ستزيد من آلامه وجراحه بعد الذي سمعته منه؟

إلى أن جاءه الرد حين ارتعشت شفتاها قبل أن تنفرج لتخرج الكلمات بلهجة مترددة قاطعة جو التوتر والترقب الذي ساد الغرفة قائلة:

- لا وقت الآن للألم والحزن، فقط ما قلته يجب أن تتأكد منه دون أن تُعرِض حياتك للخطر.

وتابعت: لقد عُدت إلى هنا لأنك أصبحت إنسانًا آخر، أو ربما تود ذلك.

ثم تابعت، وهي ترنو بعينيها إلى الفناء الذي خلا من الناس:

- علينا أن نغادر الآن حتى لا نَلفِت الأنظار، وغدًا نلتقي لنفكر معًا فيما يجب فعله.

ابتسم "وليد" وأمسك يدها بحنوٍ قائلاً:

- أنت تبعثين فيّ روحًا جديدة من الأمل، بعد أن قَيدتْني سلاسل اليأس.

استلت يدها من بين يديه برِفق، وأغلقت النافذة وأشارت إليه ليغادرا المكان، وقد بدأ الليل يرخي سدوله على المكان بعد أن أخلت الشمس مكانها في قبة السماء لتحل محلها نجوم باهتة.

انطلقا بين الخيام الغارقة في الظُلمة إلا من أضواءٍ خافتة انبعثت من مولدات كهربائية بدائية ارتفع ضجيجها لتذكرهما بالواقع المؤلم الذي يعيشانه.

* * *

(14)

السماء مُلبَّدة بالغيوم الداكنة، درجات الحرارة بدأت في الانخفاض السريع، بينما تتوالى الأخبار عن عاصفة ثلجية قادمة ستجتاح المخيم في طريقها. عادت البرك لتمتلئ بالمياه الآسنة مرة أخرى، فيما يحاول "وليد" أن يتفاداها قدر استطاعته.

بينما يتنقل "وليد" بين الطُرق المُوحِلة، تبصر عيناه بعض الأطفال يرتدون زي المدرسة الوحيدة في المُخيم، وقد حملوا بدلاً من الكُتب والأقلام أغصان الأشجار الجافة التي جمعوها بصعوبة ليستعينوا بها وأهلهم على تدفئة أجسادهم الهزيلة. سارع "وليد" حاملاً عنهم بعض ما جمعوه وهو يداعبهم قائلاً:

- لقد جمعتم الكثير من الأغصان، ولكن لعِلمكم فإن موجة الصقيع ربما لن تستمر طويلاً هذه المرة لتلتهم كل تلك الفروع الجافة.

ترد طفلة تُدعى "نور"، وهي تقبض على أحد الأغصان بيدها الصغيرة قائلة:

- عمو "وليد"، الأغصان سوف تنفعنا في تسوية القليل من الخبز في الأيام المقبلة.

يرد "وليد" باسمًا:

- رغم صِغر سنك فإنك تفكرين بطريقة عملية.

يقول طفلٌ آخر يُدعي "جاسر"، وقد نظر إلى السماء الرمادية بحسرة:

- أشعر بالبرد يخترق عظامي.. ليس في خيمتنا أغطية تكفي. واستطرد: متى تعود الشمس لتمنحنا الدفء كما تعودت دون مقابل؟

اختلج قلب "وليد" بالحزن، لكنه سارع برسم بسمة زائفة على شفتيه وهو يقول:

- إن شاء الله لن تدوم تلك الأحوال طويلاً، وسوف تعودون إلى مُدنكم التي تشتاق لإيابكم إليها.

ثم يستطرد، وكأنه يبحث عن طاقة أمل في تلك الأجواء الحالكة، فيقول:

- فليخبرني كل منكم بأمنية يتمنى أن تتحقق له؟

يرد الطفل "جاسر"، بينما تواصل ندف من الثلج في التساقط فوق رأسه ووجهه:

- أريد أن أكبر وأصبح طبيبًا أُعالِج جيراني من النازحين.

وقالت "نور"، وهي تُحكِم قبضتها على الأغصان التي تنوء بحملها:

- أريد فقط أن أرى أمي تضحك من قلبها، وأن يغادر الحزن وجهها.. إنها تقول لي إن ذلك سيحدث حتمًا عندما نعود إلى بيتنا الذي خرجنا منه هاربين.

يهب طفلٌ ثالث ويُدعي "مازن" ليقول، وكأنه تذكر أُمنية غائبة:

- عمو "وليد"، أريد أن يتوفر الماء لكي أصنع مسبحًا أعوم فيه خلال الصيف الحار، وليس بضع قطرات من الماء تبلل بها أمي جسدي. وألقى الأغصان أمام الخيمة التي يعيش فيها مع أسرته وأردف مستطردًا وهو ينظر إلى "وليد": هل يمكن أن تتحقق تلك الأمنية؟

يرد "وليد" وقد ملأته مشاعر جياشة:

- نعم يا بني، كل ما تتمنونه سوف يتحقق حتمًا، فالمستقبل لكم بالتأكيد.

فكر "وليد"، وهو يغادر تاركًا الأطفال خلف ظهره: كم هي بسيطة أحلام الصغار! ولكن أفكاره تمزقت على أثر صرخة ملتاعة انطلقت من الخيمة التي دلفت إليها نور قبل لحظات.. كانت الأم ذات الجسد النحيل مُكوَّمة على الأرض وعيناها الذابلتان تستجديان الحياة لا تريد أن تغادرها في تلك الخيمة البائسة تاركة الصغيرة لمصيرها المجهول. أخبرها "وليد" بأنه سينقلها إلى مشفى المخيم، ربما تتوافر هناك وسائل علاج وتدفئة أفضل تساعدها على التمسك بأهداب الحياة.

كان يحاول أن يمنحها أملاً كاذبًا، فهو يعلم أن المشفى المتواضع لم يعد بمقدوره تلبية حاجات المرضى المتزايدة في مخيم النزوح الذين عصفت بهم الأجواء الباردة

والحـارة، مع نُدرة الغـذاء والماء، والمسـاعدات التي باتت شـحيحة بعد أن تخلى عنهم العالـم وقرر أن ينزوي مكتفيًا بالشجب والإدانة لما يجري لهم، من دون أن يحرك ساكنًا لانتشالهم من المعاناة القاتلة التي تحيق بهم.

كانـت دمـوع "نـور" تنسـاب مـن عينيهـا وهـي تحتضن أمهـا تطلب منها ألا تتركها في هذا العالَم القاسـي، بينما النازحـون يتوافدون على الخيمـة تنفطر قلوبهم لأجل أم نور وبنتهـا، أو لأجـل أنفسـهم فـي شـخصها، بعضهـم يعرفها منـذ كانـوا هناك يعيشـون في الحـي الشـرقي، وهو حيٌّ فقيـر وبائس لا يميزه عن هذا المخيم سـوى جدران البيوت المتواضعة التي كانت تؤويهم، وتلك الخدمات الرديئة التي كانـوا يتلقونها عـن غير جودة أو اعتناء، يتحملون شـظف العيـش وتكميـم الأفواه حتـى ضجوا وارتفعـت أصواتهم، وكادوا يظفـرون بحريتهـم غير أن كل شـيء تغير عندما سالت الدماء وأُجبِروا على النزوح عن حَيّهم ومدينتهم.

كيـف جري ذلك؟ وما دور "وليد" الحقيقي فيه؟ هو لا يذكـر، فقط تموج نفسـه بالمشـاعر الحانقة لما يجري أمامـه، وعجـزه أمام دمـوع الطفلـة وأنين السـيدة الذي توقـف فجـأة لينبئ عـن سـكونها الأخير. ارتفـع نحيب نـور وهـي تحتضن جسـد أمهـا الميتة، لم يسـتطع "وليد" المكوث أكثر فغادر الخيمة وهو يشـعر بنصل سكينٍ حاد ينغرس في باطنه فيدمي جسده ويعذب روحه.

ألقي بجسده على الفراش المُهترئ وأغمض عينيه مستسلمًا، فعاودته الأحلام المزعجة التي ما تلبث أن تعاوده كل حين؛ شاهد سُحبًا سوداء تغزو سماء المخيم فتُحكم حصارها عليه ويهيمن الظلام على الوجود، وسرعان ما تفتح الأبواب القاتمة في الأعلى فتهطل الأمطار غزيرة ومندفعة صوب الخيام كجحافل من ميليشيا جبارة لا تعرف الرحمة، وينتفض "وليد" والنازحون لينقذوا ما تبقى من متاعهم القليل. كان الأطفال يرتجفون والنساء تبكي، والجميع يحاول صنع ممرات لتسري فيها المياه بعيدًا عنهم. كانوا يعملون بهِمة ويتبادلون الكلمات المُحفِّزة، حتى ظهر من بينهم ذلك الرجل الغريب الذي أبصروه يصعد التلة القريبة ويرفع صوته مُخاطِبًا إياهم، كان فارع الطول تعكس ملابسه لون الثلج الذي بدأ يتساقط مع حبات المطر، تردد صوته كالرعد وخاطبهم وكأنه حكيمٌ أقبل من عصور سحيقة:

- أنتم تستحقون ما أنتم فيه، ما فائدة الحرية إن كنتم جوعى وعطشى وتحاصركم الأمراض والأوبئة؟!

وجدت كلماته آذانًا مصغية وقلوبًا رافضة، لكنه أتبع في لهجةٍ آمرة:

- عودوا الآن نادمين إلى مدينتكم، لا تنتظروا شروق الشمس فإنها لن تبزغ، ولا تنتظروا نور الصباح فليلكم طويل.

كانوا يستمعون إليه وقد استكانوا عن إنقاذ خيامهم، وتحلقوا حول التلة جميعًا، ولم يبق بعيدًا إلا الصغار الذين انشغلوا باللهو في قنوات الماء الجارية بين الخيام، وتساءلت نفوسهم: من أين أتى ذلك الشيخ الذي لم يروه قبل الآن؟ أم كان بينهم طوال الوقت وهم لا يدرون؟!

استطرد العملاق:

- الآن.. الآن.. ارفعوا راية الندم وعودوا جماعاتٍ ووُحدانا.

بدأوا يستجيبون وكأنما تُحرِكهم قوة قاهرة، وفي مقدمتهم "وليد"، غير أن الأطفال لم يكونوا كذلك؛ فقد أبصروهم يتركون لهوهم ويندفعون إلى ارتقاء التلة التي يقف الرجل أعلاها.

وفجأة هبت رياحٌ قوية أزاحت كُتل الغيوم السوداء، فتجلَّى قُرص الشمس، وتجمد وجه الرجل ذعرًا، ثم تحول لتمثال ثلجي سرعان ما ذاب أمام أعين النازحين المدهوشة، ولكنه لم يتحول إلى ماء بل إلى طائرٍ أسود أشبه بخفاشٍ عملاق ولَّى مذعورًا من لهيب أشعة الشمس وأقدام الصغار التي تطارده.

* * *

(15)

استيقظ مبكرًا كعادته، وقف بتكاسل مستعرِضًا بعينيه الخيمة التي أضحت خالية من رفيقيه "سعدون" و"كرام"، فالأول قد توفي جراء الوباء الذي اجتاح العالم، والثاني غادره ذات صباح مُوليًا وجهه صوب المجهول، مُخبِرًا "وليد" بأنه قرر الرحيل وأنه سوف يترك قدميه تأخذانه إلى أي مكان حتى لو وصل به الأمر إلى شاطئ البحر؛ حيث حُلم الوصول إلى شواطئ أوربا.

تذكر ما جرى بعدها وإخباره لـ"مريم" بأنه هو الآخر يود الرحيل، ومعارضتها الشديدة ورجوعه عما نوى، كل ذلك مَرَق برأسه وهو يبدل ملابسه استعدادًا للذهاب إلى المنظمة ليواصل عمله الخيري في مساعدة النازحين، غير أن شبح إنسان بجسده الفارع اقتحم عليه الخيمة فجأة قد جعله يتريث في مكانه متوجسًا منه خيفة ومستعدًا للاشتباك معه، ولكن الشاب بادره بحركة مطمئنة من يده التي حملت بطاقة هُويته ليضعها أمام عيني "وليد" ثم أردف بقوله: لا تقلق أستاذ "وليد"، أنا مندوب عن أمن المخيم، جئتُ لأخبرك بأنك مطلوب للحضور إلى المقر لأمرٍ مُهم.

ارتبك "وليد" وأخرج هاتفه ليهاتف "مريم"، ولكن الرجل

عاجله قائلاً: لا داعي لأن تُخبِر أحدًا الآن، فسوف تأتي بعد وقتٍ قصير بصحبة عدد من العاملين لأداء بعض الأعمال المعتادة من قِبل منظمة الإغاثة، ليكون دخولك إلى المقر بشكل طبيعي لا يَلفِت الأنظار. وانسل مغادرًا بسرعة، من دون أن يترك فرصة لـ"وليد" يطرح فيها أي سؤال.

غادر "وليد" خيمته في اتجاه المنظمة، كانت هناك علاقة ود قد نشأت بينه وبين كثيرٍ من قاطني المُخيم بحُكم عمله التطوعي، حيَّاه كثيرٌ منهم، بينما كان هو غارقًا في صمتٍ ثقيل، فاكتفى برفع يده لرد التحيات، دافعًا قدميه للأمام دفعًا، وقد تسلل القلق إلى قلبه ودوّى سؤالٌ صارخ داخل رأسه: ترى، ماذا يخبئ له اللقاء المُرتقَب؟ أيكونون قد توصلوا لحقيقة علاقته السابقة بالميليشيات؟ أو ربما قد تمكنوا من حل لغز القتيل الذي عُثِر عليه بالقرب من خيمته. اقترب من الوصول إلى مبنى المنظمة المُتداعي، فنفض كل الهواجس من رأسه، بينما كانت الشمس تُرسِل أشعتها الواهية صوب المُخيم، فلا تمنحه الدفء الذي يحلم به، ولتُذكِّره بأنهم مُقبِلون على فصل الشتاء الذي يخشاه الناس هنا ربما أكثر من تلك القذائف التي كانت تُصلِي منازلهم هناك في المدينة المحطمة.

وصل "وليد" إلى غايته، بدا له المكان أكثر تهالكًا، والفِناء شبه خاوٍ من المساعدات الإغاثية بعد

أن قـل تدفقهـا مؤخـرًا ، لأسـباب كثيـرة لا يحيط بها ، وإن أدرك بفطرته أن مأسـاة النازحيـن واللاجئين لم تعد تشـغل الـدول والجهـات المانحـة كمـا كان الأمر عند بداية الحرب أو الثورة أو الأزمة ، حسـب رؤية كل طرفٍ لها. شـعر بالحزن لذلك المشـهد ، وتقدم دالفًا إلى غُرفة "مريم" ، أبصر وجهها تكسـوه ملامح القلق، بينما تعبث يدها ببعض الأوراق المُلقاة أمامها.

جلـس أمامهـا وقد هيأ نفسـه لأن يخبرهـا بأمر اللقاء المرتقـب، ولكنه لمح في عينيها شـيئًا غامضًا لم يتبين كنهه ، حتى بادرت هي بالحديث بلهجةٍ حاولت أن تُغلّفها بنغمةٍ مازحة قائلة:

- تأخرت اليوم بعض الشيء عن موعدك المعتاد.

"وليد" بصوتٍ واهن:

- زارنـي أحـد الأشـخاص وأخبرنـي... وصمـتَ كأن الكلمـات تأبـى الخـروج من فمـه ، غيـر أن "مريم" نظـرت في وجهه مَليًّا ثـم قالت: أخبَرك بأن المحقق يريدك في مكتب الأمن.

قال "وليد"، وقد كست وجهه ملامح الاستغراب:

- وكيف عرفت بتلك السرعة؟ ومن أخبرك؟

"مريم"، وقد شعرت ببعض الارتباك:

- بحُكـم عملـي فإنـي أعرف المسـؤول عـن الأمن في

المُخيم، وقد أخبرني بأنني سوف أذهب معك وبصحبتنا بعض المتطوعين لننقل بعض الأثاث غير الضروري من مكتب الأمن إلى مبنى المنظمة، ولكن السبب الحقيقي هو إعلامك بأمرٍ مُهِم يخُصّك.

وجال بعقل "مريم" خاطر: لماذا لم تخبره بالحقيقة كاملة؟ لماذا لم تصارحه بحقيقة علاقتها بمكتب الأمن، وبدورها الذي كان عليها أن تلعبه لكشف هُوية "وليد"، كما باح لها هو بما جرى بينه وبين تلك الجماعة التي اختطفته؟ هل تخشى أن تفقده هو الآخر؟

اقترب منها "وليد" وقال بصوتٍ واهن:

- مازال ماضيّ التعيس يطاردني، يبدو أنهم عَلِموا بعلاقتي السابقة بالمتطرفين، وربما طردوني من المُخيم أو حتى فكروا في محاكمتي على جرائم لا أتذكر عنها شيئًا.

أرخت "مريم" جفنيها مُحاوِلةً الهروب من عينيه قبل أن تستجمع شجاعتها وتقول:

- عليك ألا تتعجل في الاستنتاج يا "وليد"، ربما هناك شيء آخر لا تعرفه، ثم إنك الآن إنسان آخر.

"وليد" بصوت كسير:

- هل ترين حقًا أني غدوت إنسانًا آخر؟

"مريم": العِبرة بما أنت عليه الآن.

"وليد"، وقد بدأ فمه يفترّ عن ابتسامة عذبة:

- إذن سوف تحضرين معي ذلك اللقاء.

"مريم": سوف نذهب إلى المبنى كما هو مُرتّب، ولكن ربما لا يصلح أن أكون معك وأنت بصُحبة المحقق، فبأي صفة أكون؟

"وليد": بصفتِك حبيبتي والإنسان الوحيد الذي بتُّ أثق فيه في هذا العالم.

احمرت وجنتاها خجلاً ولمعت عيناها ببريق السعادة، وأوشكت كلماته الحانية أن تدفعها لأن تتغلب على كل هواجسها ومخاوفها فهَمّت بأن تقص عليه ما كان من أمرها مع المسؤولين عن الأمن في المخيم منذ أن قَدِم إليه، ولكن طرقات على باب الغرفة، وصوت أحد الشباب المتطوعين في المنظمة يُخبِرها بأن الوقت قد حان للذهاب إلى مبني الأمن لإحضار الأغراض التي سيتم توزيعها على النازحين، جعلاها تتوقف وتشير إلى "وليد" لكي يغادرا إلى هدفهما المنشود.

وصل عمال الإغاثة إلى مبنى الأمن في وسط المخيم، كانوا أربعة أفراد؛ اثنين من المتطوعين بصُحبة "مريم" و"وليد". دلف الجميع إلى داخل البناية فاستقبلهم أحد الموظفين مرحبًا، ثم أشار إلى فناءٍ صغير مُلحَق بالمبنى قائلاً إنه يُوجَد به بعض الأثاث البسيط الذي يمكن الاستفادة به. بدأ الجميع في حمل الأثاث ووضعه في

صندوق سيارة نقل صغيرة، حتى إذا ما أوشكت على الامتلاء طلبت "مريم" من الرجلين المغادرة لتفريغ الحمولة، ريثما تستكمل "مريم" و"وليد" بقية العمل. وهكذا أصبح وجودهما داخل المبني كما تم الإعداد له تمامًا، استقبلهما المسؤول الأمني في نفس الغُرفة التي سبق أن استُقبل فيها "وليد" بعد مصرع الرجل المجهول بجوار خيمته، أشار لهما بالجلوس، كانت نظراته حيادية، بينما "مريم" و"وليد" تجتاحهما مشاعر متباينة، كان القلق باديًا في وجهيهما وعيونهما مُسلَّطة على وجهه في انتظار أن يُحرك الرجل شفتيه، ليستجيب أخيرًا لنظرتها المُلِّحة قاطعًا جو الصمت المتوتر بقوله: هل ترغب في أن تظل الآنسة "مريم" حاضرة لهذا اللقاء؟

نظر "وليد" إلى "مريم" نظرة خاطفة ثم قال بثقة:

- نعم، أنا لا أرغب في إخفاء شيء عنها.

المُحقِّق: حسنًا، سوف أُخبِرك الآن عما توصلنا إليه عن حقيقة شخصيتك قبل إصابتك التي أفقدتك الذاكرة. في الحقيقة كان الأمر مُحيرًا وفي غاية الصعوبة، حتى أننا خشينا أن تكون مسألة فقدانك الذاكرة وانعدام هويتك السابقة مجرد خِدعة لتتمكن من الاندساس بين النازحين وتقوم بأعمال تخريب، خاصة بعد وقوع جريمة القتل التي

بدا أنها وثيقة الصلة بوجودك في المخيم.

رمق المُحقِّق "مريم" بنظرةٍ خاطفة ارتفع معها وجيب قلبها، خشية من أن يبوح بالسر قبل أن تخبر هي به "وليد"، ولكن الرجل تابع قائلاً من دون أن يكترث لنظراتها المتوسلة قائلاً:

- على أية حال، فقد توصلنا أخيرًا إلى شخصيتك السابقة، حيث كُنت تعمل لدى احدى الجهات الحكومية التي لم ترغب في إظهار صِلتك بها لأسباب قال ممثلها الذي حضر إلى هذا المكان إنها تتعلق بسلامتك، خصوصًا بعد معرفة محاولة اتصال الجماعات المتطرفة بك.

وأتبع بلهجة يملؤها اللوم:

- الأمر الذي لم تخبرنا به مبكرًا، ولكن على أية حال فقد تمكنّا من تحييد تلك الخلية المتطرفة دون إحداث ضجة.

"وليد" (مقاطعًا): والرجل الذي قُتِل بجوار خيمتي.. هل توصلتم للجناة؟

المُحقِّق: نعم، كان الرجل تابعًا للجهة الحكومية التي أخبرتنا مؤخرًا بتبعيتك لها، كان يراقبك بأوامر منهم، واغتيل على أيدي الميليشيات التي تواصلت معك، ربما ظنًا منهم بأنهم بذلك يحمونك، وربما لقطع أي وسيلة يمكن للطرف

الآخر التواصل بها معك كما فعلوا هم.

وأتبع بلهجة آسفة:

- أود القول أخيرًا إن الأمر مازال مُعقدًا، ولم تُحلّ كل ألغازه، وإن كان علينا الآن أن نتحدث عما سيكون عليه مستقبلك في الأيام المقبلة.

كانت كلمات الرجل سياطًا حادة تُمزّق روح "وليد" المُعذّبة، والحديث عن المستقبل لا يعني شيئًا سوى التذكير بالأشواك التي عليه أن يسير عليها حافيًا أو ينام عليها عاريًا كيوم وجدوه مُلقى هناك في ساحة الحي المنكوب.

لم يرد على الرجل ولم يبادله الحديث، فقط انسحب خارجًا من المبنى تتبعه "مريم" حتى لحقت به وأسرّت إليه ببضع كلمات مواسية لم تكن لتغير من واقعه شيئًا.

أخبرها بأنه يود أن يختلي بنفسه فأومأت بالإيجاب احترامًا لرغبته، وتركته لينطلق إلى خيمته وقد ازداد شعوره بالخواء، واستيقظت في عقله شياطين الأفكار، فيفكر تارة في أن يتخلص من حياته أو يهرب وينتظر من الأقدار أن تحدد مصيره، أو أن يصارح أهل المخيم بماضيه ويطلب منهم الصفح أو القصاص العادل، وطافت برأسه صور من عايشهم في مخيم النزوح:

"مريم" حبيبته التي بات ماضيه يطارده ويؤرقها، "سعدون" الذي رحل عن الحياة، و"كرام" الذي آثر أن

يُلقي بنفسه في غياهب المجهول على أن يظل أسير مُخيم النـزوح. وبـرزت في عقله فجـأة صورة الدفتـر الرمادي، وتسـاءل: لمـاذا يحتفـظ بـه إلـى الآن؟ ولمـاذا لـم يعطه ل"كـرام"، بعد أن يعتذر له عن عدم إخباره بوجوده معه؟ ثـم لمـاذا لم يسـأله عنه "كـرام"؟ رغم أنه يعلـم أنه فُقِد فـي الخيمة، وهمس خاطر في رأسـه: تـرى، ماذا تخبئ تلـك الأوراق المبهمـة؟! وبأصابع مرتعشـة فتـح الحافظة الغامضـة، ومـع تتابـع السـطور الأولـى أمـام عينيـه بدأ يحس بقشـعريرة تجتاح جسده، وبصوت الرياح تعوي في الخارج، والنجوم يزداد توهجها، حتى ظن أنها سـتقتحم عليه الخيمة.

* * *

الدفتر الرمادي

(16)

صوت أبي يصلني حزينًا مجروحًا يتردد صداه عبر أثير الزمن الماضي، لا يكف عن إسداء النصح ورفع راية القيم؛ يقول وهو يخفي جروحًا غائرة تدمي روحه المُعذّبة:

- يا ولدي، الخير منصور والشر مدحور، فلازِم الأخيار مهما جرى، فمعهم طريق النجاة الأبدي.

آهٍ يا أبي، كم مرة ألقيت على مسامعي تلك الكلمات! وكم مرة حاولت أن أمشي في دربك الوعر! ولكني لم أر فيه الأخيار إلا مهزومين ضائعين تتلقف رؤوسهم سيوف الأشرار أو سجونهم، وهم لا يملكون إلا حناجرهم تعلو بالصراخ ولا مستجيب أو منقذ.

يا إلهي.. ما هذا الذي أهذي به؟ أيكون اليأس بلغ بي منتهاه أم أني أنزف ما أختلج في صدري؟ علّني أعثر على السكينة المفقودة عبر مداد ذلك القلم الذي صادقني منذ زمن.. ولِمَ لا؟ فالبوح للورق يمنحني الأُنس المفقود، فتخف الأحمال التي ينوء بها صدري. أشعر الآن بطيف أبي يحوم حولي، وجهه الأبيض المستدير، أنفه المستقيم الحاد، جسده الفارع المتناسق، أتذكره وهو في لحظات صفائه حين كان يقول بنبرة يملؤها الفخر إنه كان مشروع بطل في رياضة كمال الأجسام لولا ظروف معيشته التي أجبرته

على الالتحاق بوظيفة عامل في مصنع للنسيج، ورغم عمله المُرهِق إلا أنه كان راضيًا متصالحًا مع نفسه، لم أُبصِره يتذمر أو يُظهِر القنوط، وكم فاض وجهه بالفرح وكأنما حيزت له الدنيا حين تخرجت في الجامعة، قال لي حينها: كان حُلمي أن أدخل الجامعة، لكن الأيام وأدت ذلك الحُلم كما وأدت كثيرًا من أمنياتي، واليوم أشهد ابني الوحيد يُحقِّق ما عجزتُ عنه.

هكذا ظن أبي وأمي أن الحياة ستصفو لهما، إلى أن بدأتُ ألاحظ تغيُّرًا في سلوك أبي وعاداته، أدركتُ بعد مدة أن الأمر يتعلق بعمله، حدث ذلك حين عاد يومًا باكرًا عن ميعاد انتهاء دوامه في المصنع، كان مُتجهِّم الوجه، لسانه يتمتم بشتائم لم يشأ أن يرفع صوته بها أمامنا، وبدا أن أمي كانت تتوقع أمرًا وتخشاه، قالت له وشفتاها ترتجفان: هل حدث لك مكروه في العمل؟

رد أبي وقد ألقى بجسده فوق أقرب مقعد:

- خرجتُ على التقاعد الإجباري.

بفزع وعيون حائرة:

- أيّ تقاعد؟ ألم تخبرني بأن المصنع بيع لمستثمر أجنبي سيحافظ للعمال على حقوقهم؟!
- هكذا كانوا يمنوننا بالوعود وكُنت من البداية في شكٍ منهم، والآن قالو لنا إن المصنع يخسر، ويجب أن يقِل عدد العمال، كذب في كذب، ولكننا لا نستطيع فعل شيء.

هكـذا كان يدور الحوار أمامي، بينما ظللتُ صامتًا مدهوشًـا تتناطح الأفكار داخل رأسـي إلى أن استوعبت هول الموقف، واندفعت إلى أبي أحتضنه وأنا أقول:

- لا عليك يا أبي، فلعلها فرصة لتستريح بعض الوقت، ثـم إنـي لم أخبـرك بأنـي وجـدتُ فرصـة للعمل في العاصمة، وسأسافر قريبًا، وربما وجدت لك فرصة في أحد مصانع النسيج هناك؛ فإنهم غالبًا يحتاجون إلى خبرات تجيد العمل بمهارة مثلك.

ابتسم أبي واغرورقت عيناه بالدموع، وكأنما فُتحَت له طاقة للأمل لم يُرِد أن يغلقها بالأسـئلة ومعرفة التفاصيل، وإن كانـت أمـي لم تسـتطع أن تخفي جزعهـا من فكرة السـفر والغُربة تلك، فارتفـع صوتها مُعترِضة على فكرة سفري لخارج مدينتي وابتعادي عنها، ولكنها ما لبثت أن تراجعت بعد أن أقنعتها برغد العيش هناك وإيابي المستمر إليهـا فـي إجازات منتظمـة. وهكذا وجدتُ نفسـي فجأة موافقًا على ما نويت سلفًا أن أرفضه، فلم أكن أرغب في البُعد عن أسـرتي لحظة واحدة لأي سـبب، ولكن هأنذا أُعلِن موافقتي وأرسـم السـعادة الزائفة علـى وجهي عَلَّني أخفـف بعضًا من آلام أبي وجراحه. لم تكد تمضي بضعة أيـام حتـى حملتُ أمتعتـي مودعًا أبي وأمـي، لأبدأ رحلتي التي أفضت إلى المصير الذي بتُّ غارقًا فيه الآن.

* * *

(17)

اليـوم أبدأ حياتـي الجديـدة، أجوبُ الطرقـات، أطوف بعينيّ في الشـوارع الواسـعة، أتأمل الوجـوه المُتعَبة، وتلك التـي فاضت عيونهـا بمظاهر البذخ، أولئك الذين يشـبهون أبـي الذي فقد عملـه دونما ذنـبٍ أو جريرة، وهـؤلاء الذين يعيشون في أبراجٍ عاجية لا يشعرون بما يعانيه من هُم دونهم.

أصِـل إلـى محطـة الحافـلات التي ليسـت سـوى عدة مقاعد خشـبية مزروعة فوق رصيف الطريق تعلوها مظلة خشـبية عتيقة، أُلقي بنفسي على أحد المقاعد فتباغتني أسـئلة تهيـج باطني، فأحـاول أن أهـرب منها متشـاغلاً بالنظر إلـى واجهات المحلات المُكتظة بالبضائع دونما نيـة بالطبع في الشـراء، ولكن الأسـئلة تظـل تتردد في إلحاحٍ مُخيف: هل أسـتطيع أن أنجح في ذلك العمل الذي أقبلـتُ إلـى العاصمة مـن أجلِه؟ قبل قدومـي حذرني أبي قائـلاً: الصحافـة مهنـة الكلمـة، والكلمـة الحُـرة في موطننـا موضع خطر لا فكاك منه.. فأجبته باسـمًا بأني أتفهـم خوفه، وذَكَّرته بوصيته لي بملازمة الأخيار لأنهم ينتصرون في النهاية، حينها طأطأ أبي رأسـه خجلاً حتى لا ألمـح تلـك الدمعة التي انسـلت من عينِه قبل أن يُسـرِع بمحوهـا، ويقول بلهجة اصطنع فيهـا المرح؛ ربما ليُخفي

خيبـة الأمل التي تعتصره: اذهب ولكـن على الأقل كُن حَذِرًا. أومأتُ برأسي موافقًا، ثم أتبعتُ بلهجة واثقة:

- سوف أكون صحافيًا كبيرًا يمكنه أن يتوسط لك عنـد أحدهم فتأتي بصُحبـة أمي للعاصمة لتعمل في أكبر مصانع النسيج هناك.

كانت أمي تجلس علـى الأريكة القريبة منا، ظننتُها صامتة تتأمل الموقف قبل أن أُدرِك أن شـفتيها ترتعشـان وهـي تلهج بالدعاء دون أن ترفـع صوتها، هكذا كانت أمي دائمًا صابرة ساكنة، تئنُّ ولكنها لا تشكو.

قبـل زواجهمـا كانـت تعمـل مـع أبـي فـي المصنع، كان يجمعهمـا أيضًا حُبهما للمطرب عبد الحليم حافظ ويُدمِنان سـماع أغنياته، خاصة تلـك التي تتغنى بالوحدة والعروبة، كانت آمالهما كبيرة كأغلب الناس حينها، والآن بعدمـا دارت السـنين دورتهـا لم يَعُـد لتلك الأحلام معنى، وقد شـاهدا الغُـزاة يطأون البـلاد العربية دون أن يحرك أحدها ساكنًا.

استيقظت من شـرودي على صوت الحافلة المتهالكة وقد توقفت أمامي، أسـرعتُ بحشر جسدي بين الأجساد المتدافعـة مـن الباب الضيق، قبل أن تواصل سـيرها من دون أن تنتظر لتتوقف عجلاتها تمامًا.

أخيرًا وصلتُ إلى هدفي المنشود فألقيتُ بنفسي خارج الحافلة بنفـس الطريقة التي صعدتُ بهـا، أبصرتُ مبنى

الجريدة ذا الواجهة الزجاجية الحديثة وهو يحتل مكانًا مميزًا من الشارع، تقدمتُ عابرًا الطريق حتى دلفتُ من الباب الكبير مُظهِرًا هُويتي لموظف الاستقبال الذي رحب بي وكأنه كان ينتظر قدومي، تسارعت قدماي نحو المصعد حتى إذا ما وقفتُ أمام غُرفة رئيس التحرير تنفستُ الصعداء وشعرتُ بأني على وشك الولوج إلى عالم جديد، عَدلتُ من هندامي وتقدمت إلى الداخل فأبصرتُ الرجل خلف مكتبه المصنوع على الطراز العربي؛ تزينه قطع الأرابيسك المحفورة بعناية، كان أبيض البشرة ضخم الجسد، غزا رأسه الشيب فزاد مظهره وقارًا، خَمنتُ في نفسي أنه على وشك أن يُودِّع عقده الرابع. أشار لي بالجلوس مُرحِبًا فجلست.

قال مبتسمًا:

- إلياس حمود.. حدَّثني عنك ابني أنطون، وأرى أنه لم يخطئ حين قال إنك مثالٌ للاجتهاد، فأنا أُبصِر الحماسة تطِلُ من عينيك حتى قبل أن تتعرف على مهامك وفريق العمل الذي ستنضم إليه.

إطراء الرجل أشعرني ببعض الخجل، غير أني تذكرتُ أنطون ابنه الذي يعمل الآن مُعيدًا في نفس الكلية التي كنا ندرس بها، كنتُ منافسه في التفوق خلال سنوات الدراسة، وعند الترشح للعمل بالجامعة، غير أن اسم أبيه حداد ومنصبه لم يجعلا لتفوقي عليه

فـي الدرجات والتقدير معنى، ولكني وللعجب لم أُصدَم حينهـا بما جرى، فأنا أعلم أن هذا حال وطننا، ومن على شـاكلته فـي كل مكان، وحين طلبتُ منه أن يتوسـط لـي في إيجـاد فرصة عمل وعدني بـأن يكون لي مكان فـي الجريـدة التي يترأس أبوه تحريرهـا، ولعلَّه بذلك قد فعل ما رآه تعويضًا مناسـبًا لن يُكلِّفه شيئًا، وسيُسكِت الأصوات الهامسـة التي كانت تتسـلل إلى سـمعه كلما اعتلى المنصة ليحاضر طلابه.

تابع الرجل.. انتبهتُ لصوته وهو يقول:

- سـوف تعمل في قسـم التحقيقـات الصحافية، وهو قسم من أهم الأقسام لدينا، خصوصًا في هذه الأيام التـي تضـرم فيها القلاقـل التي يسـمونها ثورات في الدول المجاورة. وبلهجة مليئة بالثقة قال:
- أنـت تعلـم طبعًا أن شـعبنا واعٍ لتلـك المؤامرات ولن ينجرّ لتلك الأصوات النشاز التَّي تحاول إثارة القلاقل كل فترة.

قلتُ وقد أدركت أن إجابتي سوف يترتب عليها قبولي فـي العمل أو الإلقاء بي خارج الجريدة، وربما وصل الأمر للقبـض عليَّ قبل أن أُغادِر مجلسـي، ولا يهم حينها اسـم التُّهمة مـا دمتُ لم أجب بالإجابة النموذجية التي تُقال في مثل تلك الحالات:

- بالطبـع كلنا يعلم ذلك، وأجهزتنـا الأمنية في بلدنا

الحبيب تقوم بواجبها على أكمل وجه.

انبسطت أسارير الأستاذ حداد، وقال بلهجة اصطنع فيها الجدية:

- عندك حق، ولكن كما قُلت لك: نحن أيضًا وباعتبارنا صحيفة تمثل الدولة يجب أن يكون لنا دور مُهِم في كشف الحقائق والتعرف على مختلف الاتجاهات والتيارات في الداخل والخارج.

وأتبع بلهجة ودودة: سوف تستلم عملك من الغد.

أومأت برأسي شاكرًا، وقُلت بصوتٍ فاض بالفرح:

- أشكرك أستاذ حداد، وأتمنى أن أكون عند حسن ظنك بي.

نظر إليَّ وقد ظننته سيسمح لي بالانصراف، غير أنه قال وكأنه سيضيف ملاحظة بديهية أخيرة لا تحتاج إلى كثير من الشرح:

- طبعًا أنت تعلم أنك ستبدأ للتو تشق طريقك العملي، وأن التحقيقات الصحافية تحتاج إلى أسماء كبيرة لها وزنها؛ لذا لن يوضع اسمك على الأعمال التي ستساهم فيها، بينما ستظل صحافيًّا تحت الاختبار لمدة ستة أشهر ستعمل فيها بنظام القطعة، ولن يسجل اسمك بين محرري الجريدة.

شعرتُ بالارتباك وأدركت أن عليَّ الاختيار، هل أقبل

ما سمعته وهو ما يعني أن مجهودي سيُنسَب لغيري حتى وإن كنت سأتقاضى راتبي كاملاً؟ هل أعود إلى أبي خائبًا وأخبره بما جرى أم أتحمل على أمل أن يفي الرجل بوعده وأنضم رسميًا إلى الجريدة بعد مرور الأشهر الستة؟

خرجت الكلمات من فمي متلعثمة مترددة ولكنها تفيد القبول: أنا ممتن لك، وإن كنت أظن أني سأكون منذ اليوم الأول موظفًا بالجريدة.

بانت على ملامح الأستاذ حداد علامات الظفر بما أراد، فقال وعلى وجهه ابتسامة باهتة:

- لا عليك أستاذ إلياس، هي مسألة وقت فقط.

وأتبع وكأنه تذكر إضافة مهمة:

- ثم إن المرحلة المقبلة ستتطلب عدم إظهار هويتك الصحافية لأي أحد، وهذا ما سأشرحه لك بالتفصيل غدًا في اجتماع المحررين الصباحي.

تقبلت كلماته الأخيرة على سبيل المواساة لا أكثر، غير أن توالي الأيام بعدها وعِظَم الخطوب التي وقعت معي جعلاني أدرك أنه حين قال لي تلك الكلمات الأخيرة كان يعنيها تمامًا. شكرتُ الرجل مرة أخيرة، ووقفتُ لأغادر المبني بقدمين متثاقلتين ووجه لم تعد ملامح البِشر تكسوه كما كان قبل دقائق.

والآن، وأنا أستعيد تلك اللحظة الفارقة في حياتي

القصيرة يدوّي صوت داخلي:

- هـل كان علـيَّ أن أقبـل تلـك الوظيفـة، أو قُل تلك الصفقـة في ذلك اليـوم؟ أم كان علـيَّ أن أعود إلى مدينتـي الصغيرة لأخبـر أبي أن حديثـه عن الأخيار محـض هراء، دفع هو ثمـن الإيمان به وليس عليَّ أن أكرر مأساته؟!

* * *

(18)

بعد أن غادرتُ مبني الجريدة أمس اجتاحني شعور بالامتعاض لأن اسمي لن يُكتَب على صفحاتها كما كنت أتمنى، ولكني قاومت ذلك الشعور على أمل أن يفي الأستاذ حداد بما وعدني به، وأن تكون تلك فترة قصيرة ومؤقتة، بعدها توجهتُ مباشرة إلى ذلك الفندق المتواضع الذي استأجرت غرفة صغيرة به؛ فقد كان يقع قريبًا من سوق شعبية أستطيع تلبية احتياجاتي منها بلا تكلفة عالية، كما أن الحي الذي يقع الفندق بالقرب من مدخله الشمالي هو نفسه ربما يشبه إلى حد كبير حَيَّنا الذي نشأتُ فيه. قضيت الليلة الأولى وحيدًا، لم أفكر في مغادرة غرفتي، استرخيت على المقعد المواجه للتلفاز وضغطت زر التحكم لتظهر أمامي قناة إخبارية شهيرة تكتظ بها مشاهد لِمَا يجتاح العالم هذه الأيام، أصواتٌ مرتفعة وصياحٌ ولافتات تطالب بإسقاط النظام. كانت المذيعة تُعلِّق على تلك المظاهرات واصفة ما يجري بأنها صحوة شعبية بدأت في الغرب، وها هي ذي تجتاح المُدن الش"رقية"، كانت الشعارات شبيهة بما نحلم به نحن أيضًا.. حرية وكرامة وعدل، وتساءلتُ: هل تمتد الثورة إلى هنا؟ وإن حدث ذلك، هل يمكن أن ينجح أهل مدينتي رغم الظروف المغايرة بيننا وبين الغربيين؟

لـم أسـتطع الإجابـة ، وإن كنـت قـد أدركـت حجم المخـاوف التي تشـعر بهـا حكومتنا التي تتحسـس لما يتناقله الناس، فهي تُدرِك أن الشعوب تستلهِم من بعضها كمـا تفعـل الحكومـات أيضًـا. قضيـتُ الليلة فـي نوم متقطـع تخللته أحـلام غريبة وعوالم نائيـة لا أعلم من أيِّ نقطة سـحيقة بزغت في سـراديب عقلي المُجهَد ، رأيتني ماشـيًا فـي شـوارع مدينتي وقد تغيـرت معالمهـا تمامًا ، فالبنايـات أضحـت مـا بيـن مُهدَّمـة تمامًا أو على وشـك السـقوط، والطُرقـات غـدت مكتظـة بقـاذورات وبقـع حمراء قانية تشـبه الدماء المتجلطة ، أما الناس فكانوا يترنحـون بجانبي وقد ملأت أجسـادهم الجروح والندوب وغدا بعضهم مبتور الأعضاء.

عندئـذ اجتاحتني الأسـئلة كعاصفة عاتيـة تقتلع في طريقهـا كل شـيء ، تـرى مـاذا حـل بالمدينـة وأهلهـا؟ أيـن الأطفـال الذيـن كانـت ضحكاتهـم تُفـرِح قلـوب المحزونيـن؟ أين النسـاء الجميلات اللاتي اشـتهرت بهن مدينتـي عـن سـائر المدن المجاورة؟ لم يبق سـوى تشـوُّه يكسـو الوجـوه ويسـكن قلوب النـاس الذيـن أُبصِرهم أمامي، شـعرتُ بالدوار فجلستُ على ما تبقى من مساحة الرصيف المُحطَّم تحت ظل شجرة يابسة احتلت أغصانها النسـور الجارحة التي كانت تنظر بعيون شـرهة إلى من كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة بالقُرب مني.

وبينما كنت أحاول أن أجمع شتات نفسي إذا بفتاة لم يبق من معالم أنوثتها سوى بقية من ثديين ضامرين تقف في مواجهتي، وتنظر إليَّ بعينين حادتين، ثم تقول بصوتٍ ملؤه الحنق:

- كيف تجرؤ على العودة إلى هنا وأنت ممن ساعدهم على قتلنا؟ لقد كنت صوتهم الكاذب الذي يتحدث باسمهم ويبرر إجرامهم، والآن سوف تدفع ثمن أفعالك.

حاولتُ أن أُفهمها أني لا أتذكر شيئًا مما تقوله، ولا أعلم ما الذي حَوَّل المدينة إلى كومة من أطلال، ولكن كلماتي لم تخرج سوى في شكل همهمات بائسة لا معنى لها، لأكتشف حينها أن لساني قد تم بتره.

ضحكت الفتاة وقالت بلهجة امتزج فيها الألم بالسخرية:

- لقد قطعوا لسانك بعد أن أنهيت مهمتك، لا تستغرب فهذا دأبهم حتى مع من يمهدون لهم الطريق ليجلسوا فوق العروش المخضبة بالدماء، لم يعد منك الآن فائدة لهم.

قالتها وهي تُخرج من بين طيات ملابسها الممزقة سكينًا أشهرته في وجهي، اندفعتُ واقفًا ودفعتها بقوة فسقطت أرضًا لينفجر جسدها بالدماء التي لا أعلم كيف نضحت من هذا الجسد الهزيل!

لقد أصبحتُ مجرمًا حقًا، كيف فعلتُ ذلك؟ انتابني

الفـزع وارتعشـت أطرافي وتصبب وجهـي عرقًا ، ورأيتني أصيـح صارخًـا بكل مـا أوتيت من قوة ، لأسـتيقظ على صـدى صرختي وقد امتزجـت بأصوات أبواق السـيارات التـي كانـت تمرُق بعجلة أسـفل الفنـدق. تنفسـتُ بعُمق وتحركـتُ بتثاقـل ، دافعًـا جسـدي رغمًـا عنـه لمغادرة السـرير ، ماسـحًا بيدي حبات العـرق التي غطت وجهي ، وبـدا لي أنها بقايا أثـر المعركة التـي اكتويت بأوارها قبـل أن أعـود إلى عالمـي الحي. فتحـتُ النافـذة المُطِلة على الشـارع فارتفـع الضجيج ، وأبصـرت عيناي مظاهر الحياة الصاخبة تدب كعادتها ، فسـرى في جسـدي تيار من الراحة ، فها هي ذي الحياة تسـير كعادتها وإن كان عقلي مازال مُشوشًـا بتلك الصـور المُرعِبة التي أبصرتها في منامي ، ولكنـي سـارعت بطردها مـن مخيلتي مُقنِعًا نفسـي بأنها ليسـت سـوى هواجس ومخاوف لا معنى لها. لم أُضع وقتًا ، أعددتُ لنفسـي طعام الإفطار ، ثم ارتديت ملابسـي على عجل لأنطلق قاصدًا الجريدة ، كان الجو صحوًا والشـمس مازالت ترسل أشعتها الصباحية الحانية والشـارع يموج بالحركة ؛ طلبة مدارس وموظفون وأولئك الذين لا تعرف لهم وِجهة معينة. كان عقلي مازال مُشوشًا ، ورغـم ذلك لم يكـن صعبًا عليَّ أن أتبيـن أن هناك روحًا جديدة بدأت تسـكن النفوس اليائسة ويظهر أثرها على الوجـوه التـي تغدو وتـروح بجانبي ، وعليَّ أنا نفسـي رغم

مخاوفي، بل وعلى الطبيعة والطقس والرياح.

تابعتُ سيري وأكملتُ طريقي حتى وصلتُ إلى محطة الحافلات القابعة قُرب مدخل الشارع، ولم يمض وقت طويل حتى كنت أدلف مرة أخرى إلى داخل مبنى الجريدة كأحد موظفيها، وليس كزائر عابر. كان المكان يموج بالحركة الصباحية؛ المُحررون يتنقلون من غرفةٍ إلى أخرى يتلقون الأخبار ويعيدون صياغتها وعرضها على الأستاذ حداد، يجيزها أو يمنع نشرها أو يعيد صياغتها مرة أخرى. دلفتُ إلى الغرفة وأنا أحمل على كتفي حقيبة جلدية صغيرة تحوي بداخلها حاسوبي المحمول، ألقيتُ التحية وأنا ما زلت واقفًا أمام مكتبه فلم يرد التحية ولم يدعني للجلوس كما توقعتُ، بل بادر بالوقوف مسرعًا داعيًا إياي لأن أتبعه إلى طاولة الاجتماع التي تتبوأ أحد جوانب الغُرفة الفسيحة. لم أُدرِك في حينها مغزى ذلك الفعل، غير أني حين تطور الأمر بعد ذلك ووجدتُ نفسي غارقًا في بحرٍ متلاطم من الأحداث الدامية شديدة القسوة والأفكار التي يؤمن كل معتنق لإحداها أو بعضها بأنه يمتلك الحقيقة الكاملة والحق المطلق، استرجعتُ تلك الدقائق فآمنتُ بأنها كانت السبب في تغيير مجري حياتي للأبد.

جلستُ على أحد مقاعد الطاولة الضخمة، وقد ملأني شعور بالتوتر لم يحاول أن يخفف منه الأستاذ حداد إلا بعد أن

انضم إلينا رجلٌ آخر كانت ملامحه توحي بالجدية والحزم، لم ينبس بكلمة وقتها، وإن كانت نظرات الأستاذ حداد له وكَـم الاحترام والتوقير الذي أبداه له أوحى لي بالجهة التي يمكن أن يكون ذلك الرجل هو ممثلها في الجريدة.

- أُقدِم لك إلياس يا أستاذ وديع.

رمقنـي الرجل بنظرة متفحصة دون أن يتكلم أو تتغير ملامحه ولو بابتسامة مُرحِّبة.

واستطرد الأستاذ حداد:

ـ يبدو أن والديك راضيان عنك يا إلياس، فالفرصة قد واتتك مبكرًا لكي تحفر اسمك في عالم الصحافة.

وأتبع بلهجة متحمسة قائلاً:

ـ أنـت مُكلَّـفٌ الآن بالعودة إلى مدينتك التي نشـأتَ وترعرعـتَ فيهـا وتعـرف كل الخبايـا المطمـورة والظاهرة تحت تراب أزقتها وشوارعها.

أخرسـتني المفاجـأة! كان يواصـل حديثـه لـي بينمـا الرجـل الآخـر يلوذ بصمـتٍ مُطبق، عينه علـى وجهي الذي امتقعـت ملامحـه، بينما الكلمات تخرج مـن فمي مُتعثِّرةً مُستفسِرةً عن طبيعة تلك المهمة التي بدأتُ أرتابُ فيها منذ أن شاركنا الجلسة ذلك الرجل اللائذ بالصمت، فقلتُ:

- أستاذ حداد.. هل يمكن أن توضح لي طبيعة مهمتي الصحافية، والموضوعات الذي سأكتب عنها؟

أجاب بلهجة متعجلة وكأنه يريد أن ينهي الأمر سريعًا:

- سوف تكون مراسلاً للجريدة تقوم بعمل استقصاء صحافي وجمع معلومات عما يجري الآن.

قُلت (مُسرِعًا): عذرًا أستاذي.. ماذا تقصد بقولك يجري الآن؟ فكل شيء تركته هادئًا!

أجاب بوجهٍ نافد الصبر: عالمنا كله لم يعد فيه شيء هادئ منذ فعلها جيراننا الغربيون.

وصمت فجأة بعد أن لمعت عيون الرجل الصامت بالغضب، وكأن الأستاذ حداد قد تسرع بتلك الإجابة، ولكنه سرعان ما عَقَّب مستدركًا:

- الموضوعات التي سوف تكتب عنها وتتناولها سوف تجعل منك نجمًا في عالَم الصحافة في مُقبِل الأيام.. ثق بي.

كلماته الأخيرة زادتني شكًّا، فقلتُ في محاولة أخيرة للهروب من تلك المهمة المجهولة:

- أن أعمل مراسل للجريدة في مدينتي هذا أمرٌ جيد، ولكن...

وأتبعتُ بلهجة استعطاف:

- ألا يمكن أن نؤجل تلك الخطوة حتى أتلقى التدريب الصحافي الكافي هنا في مقر الجريدة.

وعند تلك اللحظة الفارقة لم يجب الأستاذ حداد ، فقد سبقه صاحب الوجه الصامت الذي لم يعد صامتًا ، بعد أن تحركت شفتاه ليقول بصوتٍ هادئ :

- ليس هناك وقت لمزيد من المكوث هنا في الجريدة.

وأتبع بلهجة آمرة :

- عليك بالعودة الليلة إلى مدينتك لتباشر مهمتك الصحافية ، أو لنقلْ مهمتك الوطنية.. هنالك قلاقل وشخصيات ومنظمات مشبوهة تحاول أن تنقل لوطننا العزيز الفوضى تحت شعارات رنانة ، مثل الحرية والديمقراطية ، وأكاذيب لا تخفى على الشباب الواعي مثلك.

وبدأ الرجل يفصح عن كل شيء بوضوح ودون مواربة : والدك أيضًا رجل وطني ، صحيح أنه حاول أن يثير العمال مؤخرًا بلا داعٍ حقيقي ، ولكننا غفرنا له لعِلمنا أن معدنه أصيل وسوفَ يقف حتمًا إلى جانب الدولة في الوقت المناسب ، ولولا ثقتنا تلك لما قُبِل تعيينك في الجريدة القومية ، مع احترامنا طبعًا لتزكية الأستاذ حداد.

عندئذ أدركت حجم المأزق وأُسقط في يدي ، فها هو الرجل يُفصِح عن نفسه ، ويذكر أبي ، ويخبرني بأنهم يمكن أن يُلقوا به في غياهب السجون بتهمة تحريض العمال ، رغم إذعانه في النهاية وموافقته على إحالته وزملائه إلى التقاعد مُجبَرين ، ورأيتني على وشك

أن أتحول فجأة وبلا سابق إنذار أو حتى نصف إرادة من صحافي مبتدئ أو مشروع صحافي إلى شرطي سري. هالني ذلك الخاطر، فقلتُ مُحاولاً إفلات نفسي من بين براثن شباك الصياد المُحكَمة حول روحي المتعبة:

- سيدي أنا أظن أني لن أكون كُفؤًا لتلك المُهمة؛ ليس لدي الخبرة الكافية، وأظن أني نلت وظيفة لا أستحقها.

قال الرجل بحِدة، بينما الأستاذ حداد مازال صامتًا يُقلِّب عينيه بيننا ينتظر اللحظة التي يُؤذَن له فيها ليشارك في الحديث الدائر بين الفريسة والصياد:

- أنت لست من تحدد هل تصلح أم لا، نحن من يقرر ذلك.

وأتبع بلهجة حاسمة:

- إن كنت ترفض أداء المهمة الوطنية فغادر مبني الجريدة فورًا كجندي مذعور يهرب من أرض المعركة.

أحسستُ لحظتها أن الحلقة تضيق حول عُنقي أكثر فأكثر، فإما أن أرفض وأتحمل التبعات؛ إذ تنتظرني الأقبية الرطبة والمظلمة التي طالما ترددت قصص بين الناس تحكي ما يجري فيها من أهوال، هذا غير التنكيل بأبي الذي لَمَّح الرجل بما يمكن أن يفعلوه به.. كل تلك المخاوف والهواجس جثمت على روحي وترددت في عقلي، فقررتُ أن أوافق على القيام بتلك المهمة الصحافية. نعم، عليَّ أن أقنع نفسي بأنها بالفعل لا تعدو

مهمة صحافية، فلمَ لا تكون مزاعمهم عن وجود مؤامرة كبرى، وإن غُلِّفت بمطالب عادلة، تقودها وتحركها أجهزة مخابرات لدول معادية حقيقةً.. يمكنني التأكد من صِدقها أو كذبها بنفسي، حتى قبل أن أرسل لهم بأي معلومة.

تململ الرجلان من طول صمتي حتى أرحتهما بنظرة راضية، انطلق لساني على أثرها شاكرًا لهما منحي تلك الثقة.

قلتُ: قد وافقت على المهمة، فلست أنا من يهرب عند حاجة الوطن إليه، فقط أرغب في معرفة المزيد عن تفاصيل المهمة الصحافية.

تبسم الرجل ابتسامة النصر، وأشار للأستاذ حداد قائلاً:

- أستاذ حداد سيقوم بترتيب كل شيء، المهم أن تسافر اليوم وتبدأ عملك من باكر، أو من الليلة إن استطعت.

أومأتُ بالإيجاب، ليقوم الرجل دون حتى أن يصافحني ويتجه مباشرة إلى خارج الغرفة، تاركًا إياي بصُحبة الأستاذ حداد، الذي قال لي: كل شيء قد انتهى تقريبًا، ولم يبق إلا أن تجهز نفسك للعودة سريعًا.. ووقف الأستاذ حداد مُنهيًا اللقاء، تاركًا لي رقم هاتفه، ومؤكدًا لي ضرورة الاتصال به فور مغادرتي العاصمة في طريقي إلى مدينتي.

غادرتُ المبنى جارًا أذيال خيبتي، هأنذا أندس مرة

أخرى بين المارة.. إنهم الخطر الذي يُخشى منه الآن هنا، كما في مدينتي وكما في كل مكان.

دوّى صوتٌ في رأسي متسائلاً:

- هل أصبح للناس صوت يُخشى من أن يرتفع أو يصيح طالبًا الحرية وال"كرام"ة؟!

قررتُ ألا أتعجل الحكم، فبعد قليل سوف أصل إلى الفندق الذي لم أمكث به سوى ليلة واحدة، سأُلملِم أغراضي سريعًا، لن أجعل الأسئلة المحتشدة في رأسي تفتك بي، حتى مسؤول الفندق حين أنقده ثمن الليلة التي قضيتها فسينضح وجهه بالدهشة لأني أخبرته عند قدومي بأني سأقيم بالفندق طويلاً، وسيسأل جادًا إن كان أحدٌ قد أغضبني من عمال الفندق، حينها سأبتسم له وأقول مازحًا إني سئمت سريعًا من العاصمة وقررتُ العودة إلى مدينتي الهادئة، وأتركه في حيرته وأتسلل في صمت.

سارت الأمور كما تخيلتها تمامًا، وهكذا كانت تجربتي الأولى في العاصمة، قبل أن أخوض فيها تجربتي الثانية حين تصاعدت الأحداث وأريقت الدماء، وكنت أنا القاتل والقتيل في آنٍ واحد.

* * *

(19)

لم يمض وقتٌ طويل على رحيلي من الفندق حتى كنت أستقِلّ الحافلة المتجهة إلى مدينتي النائية، حاملاً في قلبي ذكرى الأحلام الموءودة والمُهمة القاسية التي عليَّ أن أنجزها، وقد حرصتُ على أن يكون موضع جلوسي في المقعد الأخير بجوار النافذة، لعل النظر منها يهوِّن عليَّ طول الرحلة. كانت الساعة في يدي تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا، الشمس في منتصف السماء تمنح جو آذار البارد مزيدًا من الدفء.

السائق أخذ مكانه استعدادًا لبدء الرحلة، وثمة مقعد بجواري ظننت أنه سيظل خاليًا إلى نهاية الرحلة، إلا أن عِطرًا أنثويًا فاتنًا ما لبث أن اقتحم جو الحافلة القاتم واتجه إلى المقعد الخالي. كانت فتاة تقترب من عمري، هادئة الملامح، ألقت عليَّ تحيةً عابرة ثم أخرجت هاتفها من حقيبتها الصغيرة وأخذت تعبث به. لم أشأ أن أبدو متطفلاً فحوّلت عيني إلى اتجاه النافذة، كانت الحافلة قد بدأت في التحرك مخترقة أحشاء العاصمة الحانقة في طريقها إلى المدينة الأكثر حنقًا. تخيلت وجه أبي وأمي حين يبصراني أمامهما، لماذا لم أهاتف أبي لأهيئه لعودتي المفاجئة؟ هل أخشى أن يفضحني صوتي حتى

قبـل أن تواجه عينـاي عينيه؟ نفضت تلـك الفكرة بعيدًا عن رأسي، وأخرجت هاتفي ضاغطًا زر الاتصال ليصلني صوت أبي مستبشرًا كعادته:

- كيف حالك يا إلياس؟ (وتابع بصوتٍ حانٍ): هل فعل بك صخب العاصمة فِعلته فأنساك حتى أن تهاتف أباك؟

بصوتٍ مبحوح جاهدت أن يبدو طبيعيًا:

- لا تستطيع المدينة الكبيرة أن تنسيني إياك يا أبي، ولكن ظروف العمل لم تكن كما كنتُ أظن، ثم إن العاصمة أبت إلا أن تعيدني إليك.

صمتَ لبرهة، ثم أردف بصوتٍ حانق:

- هل أعفوك من العمل حتى قبل أن تستلم الوظيفة؟

رددتُ (مسرعًا):

- لا لم يحدث ذلك، فقط سوف أعمل مراسلاً صحافيًا للجريدة في مدينتنا العامرة.

وأتبعتُ بلهجة اصطنعتُ فيها المرح:

- أعلـم أنـك الآن تظـن أن فرصـة إيجاد عمـل لك في العاصمـة قـد ولّت، ولكـن تريث أبا إليـاس فربما الخير في قدومي إليك.

هنا ضجّت أذني بصوت ضحكة أبي، فشعرت بالراحة تملأ قلبي وأنا أسمعه يعود لمزاحه القديم قائلاً:

- سوف أخبر والدتك التي ستكون اليوم أسعد الناس

بعودتك إليها ، ولأجلك بالتأكيد سوف تصنع لنا مائدة تختلف عما عانيته في اليومين السابقين.

- لا فائدة منك يا أبي، تأكل أفضل الطعام من يديها ثم تنكر. (وأتبعتُ بلهجة ساخرة): وعلى العموم، فالمهم أننا سنأكل اليوم وجبة شهية من صنع أم إلياس.

- في انتظارك يا بني، يرعاك الله.

ودَّعته بقولي:

- مع السلامة يا أبي. وأنهيت الاتصال معيدًا الهاتف إلى جيب بنطالي، مؤجلاً تصفح مواقع التواصل الاجتماعي إلى ما بعد الخروج من المدينة إلى فضاء الطريق الرحب الخالي.

كانت الحافلة تزيد من سرعتها بعد أن تجاوزت الشوارع المزدحمة إلى شوارع أقل ازدحامًا على أطراف العاصمة عندما سمعت صوتًا ناعمًا يتسلل إلى أذني قائلاً:

- هل حضرتك تعمل صحافيًا؟

ثم استطردت بسرعة وبلهجة معتذرة:

- آسفة (وكأنها تسرعت في السؤال).. تناهى إلى سمعي دون قصد أنك تعمل بالصحافة.

كانت هي من تجلس بجانبي، ابتسمتُ لأُحرِّرها من حرجها، وقلت:

- لا عليك، فصوتي المرتفع أثناء الحديث ورثته عن

أبي، وأخشى أن يكون ركاب الحافلة جميعًا قد سمعوا فحوى مكالمتي لأبي.

بادلتني بابتسامة خجولة قبل أن تقول:

- اسمي "رقية".. أنا أيضًا أحلم بأن أعمل بالصحافة بعد تخرجي.

هنا تأكد لي أنها طالبة جامعية، فكرتُ لوقت قصير في سذاجة أحلامها إذا ما أدركت ما جرى لي:

- تبدين طالبة مجتهدة وطموحة يا "رقية".

ردت بحماس: غالبًا ما أكون في مقدمة دفعتي.

لوهلة مر بخاطري ما جري أيام الجامعة معي، فارتبكتُ وهربتُ بعيني من وجهها إلى الفضاء الرحب عبر النافذة قبل أن أعود إليها قائلاً بأسف:

- أتمنى لك التوفيق.. وإن وددتُ أن أخبرك بأن العمل في مهنة الصحافة في بلدنا ليس باليُسر الذي تتخيلينه.

- أنت في بداية مشوارك وتشكو مبكرًا.

شعرتُ بأني تسرعت في ذكر كلمة بلدنا تلك، ونويت تجنب الخوض في أي تفاصيل تخصني، ولكني تذكرت أني الآن مراسل صحافي يبحث عن الحقيقة، وربما شيء آخر لا أود أن أعترف به ولو في مواجهة نفسي.. قلت:

- لا أشكو، فقط هذا ما أظنه في تلك المهنة.

ثم استطردتُ، وقد وجدتها فرصة لأطيل الحديث

معها ، علَّها تضيء لي جانبًا مما يجري الآن حولي:

- لـم تخبريني فـي أي فرع تدرسـين بالجامعة ما دُمتِ تنوين العمل بالصحافة بعد تخرجك؟

- أدرس أدب اللغـة العربيـة ، وهـو من أقرب الأقسـام لمهنة الصحافة.

- هل تسكنين مدينتنا أم هي زيارة خاصة عابرة؟

نظرت إلي بعين تكاد أن تخبرني بأني غدوت متطفلاً، ورغم ذلك فقد أجابتني بصوتٍ هادئ:

- أنا بنت المدينة أعيش فيها مع أسـرتي، بينما أدرس فقط في العاصمة.

- الدراسـة في العاصمة بالتأكيد شـيءٌ مختلف عما هو الحال في مدينتنا النائية.

- عـن أي اختـلاف تتكلـم؟ وأتبعـتْ بلهجـة حـذرة: اعذرني أنا لم أفهم قصدك.

- أقصد طبيعة الحياة الصاخبة والأفكار المتنوعة و...

لـم تتركني أُكمِل كلماتي، بل بترتها بنظرة جمعت بين الدهشة والريبة، ثم قالت بعد صمتٍ قصير:

- الأمـر ليس كذلك؛ هنا كمـا في مدينتنا يمكنك أن تقـول نعـم بكل حريـة ، أم لا أو أن تعترض فهذا أمرٌ آخر.

أومأتُ لها متفهمًا، ثم قلتُ بنبرةٍ واثقة:

- ولكنّ العالم الآن يتغير من حولنا.

لمعت عيناها بنظرة حالمة، وكأنما مست كلماتي وتر الأُمنيات بداخلها:

- نعم، شاهدتُ قبل يومين ما جعلني أُدرِك تلك الحقيقة.

كان ذلك حين تأكدت الأنباء بانتصار شعب جارتنا الغربية، عندها سرت موجة طاغية من الفرحة المكتومة سرعان ما أفلتت من زمامها لتسري في أنحاء الجامعة فيتجمع الطلاب وأنا بينهم في باحة الجامعة، ارتفعت أصواتنا، عَبَّرنا عما يختلج في نفوسنا، عما يدور في المنطقة من حولنا، ولكن سرعان ما تم احتواء الأمر بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى.. حدثنا مدير الجامعة بنفسه، ارتفع صوته، قال لنا بصوتٍ يملؤه الحماس:

- لسنا مثلهم، وقيادتنا الحكيمة ليست كقيادتهم، وإننا يجب أن نعود لدراستنا حتى لا يضطر الأمن إلى أن يتدخل.

ولكننا تجاهلنا تهديده وبقينا نحتشد في الساحة حتى انصرفنا بطوعنا، من دون أن ينفلت الأمر ونُضرَب بهراوات الشرطة التي كانت مستعدة لاقتحام ساحة الجامعة، ولكنهم لم يفعلوا؛ ربما لأنهم تحاشوا الصدام معنا تجنبًا لإشعال ثورات جديدة.

قلتُ وأنا أتأمل تفاصيل وجهها التي بدت لي أكثر أُلفة:

- أنت إذن شجاعة يا "رقية".

ابتسمت، ثم قالت بنبرة تملؤها الثقة:

- لو لم أكن شجاعة لما تحدثت إليك بتلك الصراحة، رغم عدم معرفتي السابقة بك.
- نعم أنت كذلك يا أنسة "رقية"، واسمحي لي أن أعترف لك بأني طوال مدة دراستي بالجامعة ربما لم أصادف فتاة مثلك.

ثم طلبتُ منها أن تسجل رقم هاتفي، طالبًا منها أن تهاتفني إن احتاجت إلى أي مشورة تخص عملي وتفيد دراستها.

وظننتُ لوهلة أني قد تجاوزت حدي مع فتاة جمعتني بها مجرد الصدفة، ولكنها لم تُظهِر غضبًا، بل عقبت بصوتٍ محايد قائلة: أشكرك يا أستاذ إلياس. وأخرجت هاتفها وسجلت الرقم، ثم عادت لتعبث بالهاتف مرة أخرى، فأدركت أنها تنسحب من الحديث معي، فأثرتُ ألا أكون متطفلاً وانسحبتُ عائدًا ببصري إلى داخل الحافلة، حيث الوجوه المُتعَبة التي داهم أغلبها النعاس، بينما بقي الآخرون إما مستغرقين في الصمت أو تتحرك شفاههم بأحاديث جانبية لا أستطيع الوصول إلى فحواها، بينما الطريق المُنهِك وسط الصحراء القاحلة غير مُعبّد جيدًا، ما يجعلنا نشعر وكأننا نستقِلّ أرجوحة. مضى الوقت التالي في صمتٍ لم أحاول أن أخدشه، حتى لاحت المدينة، ثم بدأت الحافلة في اختراق شوارعها إلى

أن توقفت في محطة الوصول، فتسرب إلى قلبي شعورٌ بأن هناك شيئًا ما غير اعتيادي؛ حركة المارة أقل من المعتاد، واجهات بعض المباني عليها عبارات بدا لي أنها كُتِبَت بطريقة عشوائية على عجلٍ وطُمِسَت بقسوة.

سمعتُ "رقية" تقول، وعلى وجهها علامات القلق:

- يبدو أنك ستبدأ عملك الصحافي مبكرًا.

أجبتُ: نعم، يبدو ذلك.

وفي تلك اللحظة حمل كلٌّ منا حقيبته مغادرًا إلى وجهته.

* * *

(20)

شـاهدتُ في طريق عودتي بعض العبارات الثورية التي لـم تُطمَـس بعد ، ربمـا لأنهـا كُتِبَـت على جـدران أبنية الحارات والشوارع الفرعية البعيدة عن مركز المدينة.

هاتفني شـخص يُدعى الأسـتاذ "وديع شـوكت" ، قال لي إنه الصحافي الذي سـيكون همزة الوصل بيني وبين الجريـدة ، وطلـب مني أن أُعِد تقريـرًا صحافيًا عن تاريخ المدينـة وأحـوال سـكانها ، فاستبشـرت خيـرًا ووعدته ببـذل أقصـى جهـدي. وحين وصلـتُ إلى منزلـي وطرقتُ البـاب أبصـرتُ وجه أمي أمامـي ، ارتميت فـي أحضانها وكأني غبتُ عنها شهورًا وليس أيامًا معدودة ، استقبلني أبـي بابتسـامة جمعـت بيـن الفرحـة والارتبـاك ، وحيـن تقدمـت للداخل علمـتُ أن أبي وأمي لـم يكونا وحدهما فـي المنزل ، بل كان هناك عِدة أشـخاص يجلسـون في غرفـة الضيوف. ظننتُ في البداية أنهـم أصدقاء أبي أتوا للاحتفال بقدومي ، ولكني حيـن تأملت الوجوه الحزينة الغاضبة أدركتُ أن هناك خطبًا ما. أمسك أبي بمعصمي واقتادنـي إلى غرفة الطعـام ، وهو يقول لـي بلهجة امتزج فيها الحماس بالفخر :

- تنـاول طعامـك يـا إلياس ، فنحـن ننتظـرك لنرى ما

يمكننا فعله لنحرر أولئك الصبية.

تناولتُ الطعام سريعًا وأسرعتُ إلى أبي وضيوفه.

عند دخولي كان النقاش مُحتدًا، كان بعضهم من زملاء أبي السابقين، وآخرون لم أقابلهم من قبل، سمعت أحدهم - وهو رجل يبدو في العقد الخامس من عمره بدا على وجهه الانفعال الشديد - يقول:

- لقد تجاوزوا كل الحدود، حتى الصبية والأطفال الصغار يقبضون عليهم بهذا الشكل المهين ويلقون بهم في أقبية السجون؟! لا بد لنا أن نحررهم بأي طريقة.

طلب أبي من الرجل أن يهدأ، وأشار نحوي مفاخرًا:

- إلياس يعمل الآن مراسلاً صحافيًا للجريدة الرسمية، ربما كان بإمكانه أن يجد لنا حلاً.

شعرتُ بالارتباك وبدا لي أن أبي يعطيني قدرًا من الأهمية المُتخيَّلة، فأجبتُ متجنبًا مجاراته في هذا الأمر:

- عذرًا، يجب أن أُلِمّ بتفاصيل ما جرى لكي أستطيع إيصال الصورة بشكل صحيح.

بدت كلماتي منطقية في تلك اللحظة، أكد لي ذلك ردة الفعل المستجيبة وإيماءات الاستحسان من الآخرين، وبدأ الرجل يقص ما جرى بوجهٍ شاحب وصوت مِلؤه الحنق، بينما رياح غاضبة تزوم في الخارج:

- بدأت الأحداث ليلة أمس، حينما قام بعض الشباب

بكتابة شعارات على جدران بعض الأبنية يطالبون فيها بالإصلاح وتداول السلطة، وانتهى بحملة شعواء من التنكيل بالناس والتوقيف العشوائي على كل من أوقعه حظه العاثر في طريقهم، ومن بينهم ابني ربيع الذي لا يزال شابًا في مقتبل العمر.

أنهى الرجل كلماته التي فاضت بالمشاعر الحانقة، منتظرًا أن ألقي له ببارقة أمل يتشبث بأهدابها وسط ظلام اليأس الذي يعيشه وأهل المدينة تلك الأيام، فأجبته بصوتٍ جاهدتُ أن يخرج متماسكًا بأني سأبذل كل جهدي ليصل صوتهم إلى الصحيفة التي أعمل بها، وسمعتُ صوت الهاتف يرتفع منبئًا عن مكالمةٍ واردة، فاستأذنت لأنصرف مُسرِعًا إلى غرفتي، بينما كان "وديع شوكت" ينتظر أن أرد على مهاتفته.

- مساء الخير أستاذ وديع، كنت على وشك أن أهاتفك ولكنك سبقتني.

وديع بصوتٍ جاف: أعلِمنا بآخر ما لديك يا إلياس.

فكرتُ بأن الفرصة أقبلت إليَّ بأسرع مما أتوقع، فقلتُ:

- المدينة تغلي والناس مستاءة من التنكيل بأبنائهم، يمكنني أن أرصد لك المشاعر الحانقة في شكل تحقيق صحافي وأرسله لك صباحًا ليتم نشره سريعًا، وتكون صحيفتنا أول المعبرين بصِدق عما يجري الآن.

وصلني صوت الرجل حادًا خشنًا كأنما يخرج من بئر

سحيق:

- أكتب التحقيق كما تشاء، ولكن لابد من ذِكر الأسماء والشخصيات التي تلتقيها أو تُحرِّك الأحداث، نريد بيانات تفصيلية، اعمل على استيضاح ما ينوون فعله.

الآن أيقنتُ تمامًا أن المطلوب مني ليس عملاً صحافيًا، وأن "وديع شوكت" ليس سوي مندوب أمني في الجريدة. أجبتُ الرجل بصوت أكسبتُه الهدوء اللازم بأني سأقوم بما يلزم. ومنذ تلك اللحظة قررت أن أجاريهم حتى لا أجلب الأذى لنفسي أو لعائلتي أو لهؤلاء الناس الذين لا يريدون سوى العدل والحرية، قمتُ بضبط هاتفي على الوضع الصامت، واستسلمتُ للنوم بعد يومٍ طويل أُرهق فيه عقلي وجسدي.

استيقظتُ في العاشرة من صباح اليوم التالي، أدركتُ أني نمت أكثر من المعتاد، مددت يدي إلى الهاتف الملقى على الطاولة وأعدته إلى وضع الرنين، ثم تفحصت سجل المكالمات الفائتة فوجدت مكالمتين مهملتين، الأولى كنت أتوقعها وكانت من "وديع شوكت"، أما الثانية فكانت من "رقية" تلك الفتاة التي تعرفتُ عليها في الحافلة القادمة من العاصمة في اليوم السابق.. ترى ما الذي كانت تبغيه تلك الفتاة من مهاتفتي ليلاً؟ أثار فضولي هذا التساؤل، فقررتُ أن أتصل بها فورًا، وجاءني

صوتهـا مرتفعًا ومتوترًا ، قالـت نحن في الميدان الكبير وسـط المدينة ، لقد قررنا التظاهر للمطالبة بالإفراج عن الاطفال المعتقلين. احتشـدت الأفكار في رأسي فجأة ، تـرى مـاذا جرى خلال الليـل؟ فها هي الأمـور تتطور ربما بأسرع مما كنت أتوقع.

- ألو.. أستاذ إلياس. هكذا جاءني صوتها يستحثني ، فأجبتها بكلمات مقتضبة : إني قادمٌ الآن يا "رقية" ، حاولي أن تحافظي على نفسـك في مكان آمن قدر المستطاع.

ارتديتُ ملابسـي علـى عجل ، ناديت علـى أبي لأخبره بخروجي ، فأجابتني أمي بأنه سبقني في الخروج باكرًا. انتابني شـعور بالخوف ، ولم أشأ أن ينتقل ذلك الإحساس إلى أمي ، فانطلقتُ مسرعًا قاصدًا وسط المدينة ، حيث احتشد الناس بمختلف طوائفهم في مشهد لم أر له مثيلاً مـن قبـل ، لقد قـررت جموع الشـعب وبشـكل عفوي أن يحتجوا سلميًا على التنكيل بأبنائهم.

هاتفـتُ "رقية" حتـى وصلتُ إليها ، كانـت في المقدمة ترفـع لافتـة مـن قمـاش بسـيط كُتـب عليها بخـط أحمر عريض:

أفرجوا عن ربيع..

أفرجوا عن المعتقلين..

أفرجوا عن الوطن...

وهنـاك على أطراف الميدان وعلى مداخله قوات أمنية تتأهب متربصة، بينما على بعد أمتار منها مظاهرة أخرى أقل حجمًا ترفع لافتات مؤيدة تطالب بالاستقرار وتصف من هُم في قلب الميدان بالمخربين.

صاحت "رقيـة": اكتـب يا أسـتاذ إلياس عمـا يجري.. أَعلِـم الدنيا جميعًا بأننا لن نتراجع حتى تتحقق مطالبنا في العدل والحرية.

وقفـتُ بجانبها دون أن أنبس بكلمة، فلم تعبأ بذلك، وواصلـت هتافهـا بحمـاس. لم يسـتمر الوضـع على ذلك الحال طويلاً، فقد انضمت جموع جديدة للثائرين لا أعلم كيف انشق الميدان عنهم ولا كيف استطاعوا الوصول إليه! لكن المفاجـأة الحقيقية، بل المفاجأة الأكبر أن أبـي كان من بينهم، بل كان على رأسـهم، لقد كانوا يحملونـه على أكتاف أحدهم وهـو يهتف بين زملائه من جموع العمال المشـردين، بدا لعيني أكثر بؤسًا وحنقًا، ولكـن ذلـك لـم ينقص شـيئًا من بهائـه وشـموخه وحِدة صوته، كان ينادي بإسـقاط النظـام، وكانت الحناجر تهتـف خلفـه، بينمـا مدينتـا الصغيـرة تنتفـض على غير عادتهـا وكأن الخوف المتغلغل بين دروبها قد هرب منها إلى غير رجعة.

ورويـدًا.. رويـدًا، بدأت رياحٌ سـاخنة تهـب ومعها جنود برزوا من كل مكان، حتى أنَّت الأرض من وقع أحذيتهم

الثقيلة، لم يتمهّلوا ولم يبادلوهم أي حديث، فقط بادروا بحصار الجموع الثائرة، ثم أطلقوا العنان لقنابل الغاز التي أعمت العيون، ثم انهالت على الرؤوس طلقات رصاص عمياء لم يتضح من أي جهة تأتي، أخذت تخترق الجماجم وتصيب الأطراف وتحصد الأرواح البريئة.

أنطفأ صوت أبي واختفت صورته، عندئذ تقدمتُ أخترق الجموع محاولاً عبثًا البحث عنه، بينما رائحة الموت تجثم على كل شبر في الميدان، حتى اصطدمتُ بجسده وهو غارقٌ في دمائه، ومعه أبو ربيع وأبو "رقية" أيضًا، وهو ما لم أنتبه له إلا في تلك اللحظة، فلم أكن قد ربطت بعدُ بين ما دُوِّن على اللافتة وما جرى في منزلنا بالأمس.

كانت تلك لحظة فارقة في حياتي، فقد أصيب أبي إصابة بالغة، بينما فارق أبو "رقية" الحياة.

كيف انتهى ذلك المشهد المُؤلِم؟ وكيف كان شعوري وأنا أحمل أبي مُصابًا وأعدو به إلى المشفى، بينما قام آخرون بحمل جثمان زميله مع ابنته المكلومة؟!

كل تلك الأحداث يعجز قلمي عن تدوينها الآن، ولكنها على أية حال انتهت بنجاة أبي، وبداية الثورة التي اجتاحت بقية المُدن حتى وصلت إلى قلب العاصمة.

في ذلك اليوم قررتُ أن أنضم إلى الثوار، وألا أكون بوقًا مُزيفًا للقتلة، ونصحني أبي بأن أترك الصحافة تمامًا، ولكني آثرتُ ألا أفعل ذلك، فأبي سيكون في

خطـرٍ أكبر، وأنا كذلك لن يكـون من الصعب عليهم الوصول إليَّ.

تساءلتُ حينها:

- مـاذا يمكنني أن أفعل؟ وما هي الخطوة التالية التي عليَّ أن أخطوها؟

ولم تأخـذ الإجابة مني عناءً طويـلاً، فقد ظهرت فورًا في مخيلتي "رقية"، تلك الفتاة النحيفة الرقيقة التي فقدت أهلها جميعًا؛ أباها الذي قُتِل أمام ناظريها، وأخاها الذي لـم يُفرَج عنه، ورغـم ذلك فإن اليأس لم يعرف طريقًا إلى قلبهـا، لقد كان لهـا تأثير طاغٍ على مـن يعرفها، وحين ذهبتُ إليها لأواسيها، وجدتُها رابطة الجأش؛ قالت لي إن أباها مات من أجل فكرة، وهي سـتمضي من أجلها إلى النهاية. نصحتُها بالتريـث فالمواجهة باتت مؤلمة، وردّت بأن التضحية تهون من أجل الحرية.

قلتُ لها إن أبي يُقرِئها السلام، وإنه طلب مني أن أترك العمـل بالصحافـة، خصوصًـا وهو يشـك بـأن الصحيفة الحكومية سـوف تنشـر حرفًا مما كتبته عن حقيقة ما جرى ويجري.

قالـت إن الأفضـل أن أظل في عملي، فاسـتقالتي الآن لـن تعني سـوى شـيء واحد وهـو أني انضممـتُ لصفوف المعارضين، وإن الخطر سيكون كبيرًا عليَّ وعلي أبي الذي بات مُقعَدًا بعد إصابته.

هل أستطيع أن أخبرها بحقيقة ما جرى معي في العاصمة؟ وأنـي الآن بتُ في نظرهم أحد عيونهم في المدينة، وأنه لولا ذلك لما تركوا أبي يتلقى العلاج ويعود لبيته؟

هـل أخبرهـا بالمكالمـة التي تمـت بيني وبيـن "وديع شـوكت"؟ لقد وبخني على هتافات أبـي في المظاهرة، ولكنـه رغم ذلـك أوحى لي بأن ذلك سـوف يخدمني في عملي. لم أجرؤ على إخبارها بما أنا عليه الآن من حيرة.

ولكنهـا اسـتبقت بوحي بـأن عرضت علـيَّ أن أنضم لخليـة مـن الثوار. أكدتُ لهـا أن تلك رغبتـي الحقيقية، ولكني اشـترطتُ ألا أظهر باسـمي الحقيقي، بل باسـم مسـتعار وهـو "عبـد الله"، وكان علـيَّ أن أخبـر مندوبً الصحيفة بالأمر لكي يطمئنوا إليَّ أكثر..

وهكـذا بـدأت رحلتـي التـي أظـن أنهـا ربمـا تنتهـي الآن بالقـرار المصيـري الـذي اتخذتـه، بينمـا أصـوات الاشتباكات تزداد حِدة، ولكن قبل أن أتحرك لا بد من إكمال تدوين ما بدأته.

* * *

(21)

مضى شهر نيسان، وها هو أيار على وشك النهاية، الثورة مازالت في أوج عنفوانها وانتشارها في كل ربوع الوطن، الدعوات للإصلاح تحولت إلى المطالبة بإسقاط النظام وتغييره من جذوره بعد التعامل العنيف مع المتظاهرين، أما أنا فقد دأبتُ على إرسال التقارير التي يُفتَرَض أن تكون صحافية مهنية، ولكنها في الحقيقة لم تكن سوى تقارير أمنية كنت أصيغها بعناية مع الثوار، بحيث تحتوي على معلومات عامة غير ذات خطورة أو معلومات معينة يريد الثوار أن تصل للسلطة.

في تلك الفترة بتُّ أقربَ من أي وقت مضى إلى مجتمعي الذي نشأتُ فيه، أحلامه وطموحاته التي جسدها "كرام" الذي عرفته من أشعاره التي حملت أحلام الثورة والتغيير، و"مراد" جاره في نفس الحي، وإن كانت نزعته تختلف عن "كرام" فهو أميل للحلول العنيفة كما فهمت من "رقية". لم يكن أي منا ينظر إلى دين الآخر أو طائفته، فالجميع متوحدون حول الثورة وأهدافها، ثم حدث ما كنت أخشاه، فهبت رياح سامّة وعاتية حاولتُ تحذيرهم من خطورتها، وأشرتُ مِرارًا إلى مصدرها، ولكن الأمر كان أكبر من طاقتي.

بـدأ العنف يستشـري، وظهر القتل علـى الهُوية. الثوار الحقيقيون قبضوا على الجمر، تمسـكوا بالسـلمية تارة ودافعـوا عن أنفسـهم تارة أخـرى، ثم اختلط كل شـيء وسـالت الدمـاء دون تمييز، كيف حـدث ذلك؟ أتذكر جيدًا البداية، حين عُدتُ إلى العاصمة مرة أخرى لمقابلة "وديع شـوكت" الذي طلب مني الحضـور لأمر لم يُفصِح عنه، فقَدِمتُ إليه رغم توجسي منه. كان لقاؤنا في مبني الجريـدة فـي ذات الغرفة التـي التقيته فيهـا أول مرة، لم تتغيـر ملامحه الجامدة التي تشـبه تماثيل الآلهة الغابرة، يحـاول أن يصنـع حولـه هالة كاذبـة مصدرها بطش من يمثلهم، لم يشاركنا اللقاء الأستاذ حداد رئيس التحرير، ربما لأنه لم يعد لوجوده ضرورة بعد معرفتي بحقيقة الدور الذي أقوم به.

تكلم وديع قائلاً: أنا سعيد برؤيتك ثانية يا إلياس.

واستطرد وهو يحاصرني بعينٍ فاحصة:

- وأعرف أيضًا أنك في غبطة بعد أن أحبطنا المؤامرة في العاصمة التي صنعتها الأيادي الغربية والإمبريالية الأمريكية.

أحدثـت جملتـه الأخيـرة قهقهة سـاخرة دوّت داخلي، بينما هو يواصل:

- مدينتك أيضًا سـوف يكتمل تحريرها بفضل جهود المخلصين للوطن والقيادة، وأنت في طليعتهم.

واسترسل وقد غيّر من نبرة صوته، وقال بلهجةٍ آسفة:

- لقد أرسلت إليك باعتبارك أحد رجالنا المخلصين لأُحذِّرك مما يحيق بك وبطائفتك من أخطار المتمردين الذين انضم إليهم الكثير منهم، لقد وصلت إلينا معلومات أنهم إن تمكنوا من السيطرة تمامًا على المدينة فسوف يقومون بتهجير الأقليات، أو حتى إبادتهم تمامًا، لذا لم أشأ أن أخبرك بهذا الأمر الخطير في الهاتف، وفضلت أن أحذرك وأنت هنا أمامي.

صمتَ وديع، وبدا لي أنه أنهي كلماته القصيرة والقاتلة.

أجبته بصوتٍ جاهدتُ كي أخرجه حياديًا، وقلت له إنه رغم كل الأحداث الجارية فإنه لم يتعرض لنا أحد بسوء في المدينة. عندئذ أخرج هاتفه، ثم وبحركة استعراضية بدأ يسمعني مكالمات هاتفية قال لي إنها مُختَرَقة لأشخاص يتحدثون عن مستقبل دولة دينية تستبعد الأقليات، كدت أخبره بأن تلك الأصوات قليلة ونادرة، لكني لم أرتكب ذلك الخطأ الذي سيجعلني في صف الثوار، فأجبته بأني سوف أرصد ما يحدث وسوف أكون على اتصال دائم به.

انطلقت مغادرًا مبني الجريدة وأنا مُشتتُ الفِكر أمشي بخطوات متثاقلة، الشارع شبه خال، السيارات القليلة تمرُق مُسرِعة دون توقف، بينما أصوات الرعد تكاد تصم أذني وزخات من المطر تواصل الهطول

فتزيد من معاناة الناس الذين تمكنت السلطة مؤخرًا من إحكام قبضتها عليهم فخبَت ثورتهم، وإن كنت أظن أن قلوبهم مازالت على تحفزها، وتذكرتُ "مراد" الثائر الذي عرفتني به "رقية" دون أن تفصح له عن اسمي الحقيقي، رغم أنه من نفس طائفتي أنا و"رقية"، بينما الشاعر "كرام" ينتمي لطائفة الأكثرية، وانتبهتُ إلى أن كلمة طائفة لم تكن تتردد في ذهني قبل الآن، حينها أيقنت أن وديع في الحقيقة لم يقبض عليَّ ولم يلق بي في غياهب المعتقلات كما كنت أتحسب، ولكنه ألقي في باطني ببذور شيطانية بتُّ أخشى أن تكبل روحي فتدفعني دون أن أدري للمساهمة في إنجاح مخطط صُنِع للتفريق بين أهل مدينتي ووأد ثورتهم.

جاهدتُ لانتزاع تلك الأفكار والهواجس من رأسي، وتابعت الخُطى إلى محطة الحافلات مُصمِّمًا على الرحيل عن العاصمة الليلة والعودة سريعًا، فربما استطعت تحذيرهم من المؤامرة التي أريد لي أن أشترك في حياكة خيوطها.

* * *

(22)

توفيت أمي فجأة، استيقظ أبي ذات صباح وهَمّ بإيقاظها، ولكنها لم تجبه كعادتها، فقد غادرت روحها الشفافة إلى بارئها، ودوّى صوت أبي كالرعد، فهرعتُ إليه وأدركت الفاجعة التي ألمَّت بكلينا. كان وجهه صامتًا وعيناه تنزفان الدموع، ربما كانت رأسه تحتشد بذكرياتهما معًا منذ عرفها في مصنع النسيج، قال لي ذات مرة إنها فضلته على رئيسها في العمل وإن حبهما صمد رغم كل الصعاب. كانت حبيبته وصديقته وزوجته، والآن رحلت من دون كلمة وداع.

مرت الأيام التالية بطيئة وحزينة وقاسية، ازدادت حالة أبي سوءًا، وغدا جسده الذي كان ما يزال مُثقَلاً بأثر الجراح التي أُصيب بها في مظاهرة الميدان أكثر ضعفًا. لم يستطع أن يتحمل آلام الفقد ولا رؤيته للثورة وهي تتحول إلى مستنقع من الدماء، فذبلت روحه شيئًا فشيئًا حتى لحِق بأمي قبل أن يمر على وفاتها أسابيع قليلة. وجدتُ نفسي مُفتقِدًا أسرتي الصغيرة، بينما تمور مدينتي بالأحداث المتتابعة.

لم أعد أخشى أن يكتشف "وديع شوكت" حقيقتي، ولكني بتُّ في حيرة، فما حذرني من حدوثه من اعتداءات

تجاه طائفتي أصبحتُ أُبصِره بعيني، وغدًا يتصاعد شيئًا فشيئًا، ولكن عقلي يأبى أن يصدق أن أولئك الذين يسعون إلى الحرية يمكن أن تتلطخ أيديهم بالدماء البريئة، "كرام".. ذلك الشاعر الحالم الذي تفيض كلماته بمعاني الخير والسلام التي ترفع من القيم النبيلة وأتولى نشرها في كل ربوع المدينة فتتلقفها القلوب العطشى للتغيير المُفعَمةُ بالأمل وتحولها إلى هتاف يرج أرجاء المدينة، كيف لي أن اتصوره قاتلاً أو محرضًا؟!

تجرح أذني أصوات الاشتباكات التي لم تهدأ منذ أيام، فقد اغتيل زعيم طائفتي، ثم زعماء طوائف وأقليات أخرى، وبعدها تم تفجير أماكن دينية للأقلية والأكثرية، ولم يعد يُعرَف مَن يقتل مَن؟ ولماذا؟ حاولتُ أن أنبه الثوار وأحذرهم، ولكن دون جدوي.

وكان آخر لقاء جمعني ب"رقية" تجسيدًا لما آلت إليه ثورتنا، ومُقدِمة لما سيجري بعد ذلك من مآسٍ أكبر وأشد قسوة. كانت قد هاتفتني وأخبرتني بأنها تنتظرني في منزلها الصغير على أطراف الحي الغربي الذي مازال يتمتع بهدوء نسبي قياسًا على بقية المدينة، وحين وصلتُ سريعًا ودلفتُ إلى الداخل كنت أظن أن بقية الثوار الذين طالما حدثتني عنهم مجتمعون معها، ولكني أبصرتها وحيدة، ملامح الشحوب تكسو وجهها الطفولي، وعيناها الحالمتان تشّعان بالحزن.

فـور رؤيتها لي أسـرعت إليَّ وعانقتني بشِـدة، وبدأت دموعهـا تنهمـر، كانـت تلك أول مـرة أشـاهدها بذلك الضعف، حاولـت أن أهدئ من روعها وأطمئِنها أن الثورة برغـم الصعوبات تسـير فـي الطريق الصحيـح، ولكنها أومـأت بالنفي، وقالت بلهجة متوسـلة: ليـس الأمر كما تظـن! واسـتطردت بلهجـة أكثـر جدية: عليـك أن تغادر المدينة فورًا، إن اسـتطعت، إلـى أي مدينة بعيدة قبل أن يصلوا إليك.

فكرتُ للحظات: ترى من تقصد؟ فأردفتُ قائلاً:

- السلطة؟ لا أظن أنهم اكتشفوا أمري بعد!

ثم هالني خاطر فقلتُ:

- أتعنين أن الثوار يبغون قتلي؟

أجابت "رقية" بلهجة آسفة:

- الثـوار الحقيقيـون اليـوم فـي موقـف صعـب، لقـد تسـربت إلى مدينتنا ميليشيا من خارج المدينة وربما من خـارج الوطن كلـه، بدعوى حمايتنـا بعد مقتل شيخ الطائفة، لقد أخبرني بالأمر "مراد" الذي طلب منـي أن أنضـم إليهم وأسـعى إلى ضمـك أنت الآخر معي باعتبارك مـن أبناء الطائفة، وحين أخبرته بأن ذلك يخالف مبادئنا أمهلني اليوم لأتخذ قراري، وإلا فسيعتبروننا من أعدائهم.

شعرتُ بكلمات "رقية" تغزو قلبي كالرصاص الحارق الـذي أمطر حيَّنا قبل أيـام، ولكني لم أكن لأهرب في تلك الفوضى وأنجو بنفسـي تاركًا خلفي مدينتي وأولئك الذين آمنتُ بهم وبثورتهم.

قلتُ لها وقد اقتربت أنفاسي من أنفاسها:

- إني أود الزواج منك.

كانـت مفاجأة أربكتها، فتغيرت ملاحمها العابسـة وارتد إليها للحظات وجهها الطفولي، وقالت بنبرة هادئة:

- أعلـم ما دفعـك إلى هـذا الطلب، ولكـن اطمئن، أسـتطيع أن أواجـه كل المصاعب بمفـردي، ثم إن قلبي وعقلي قد وهبتهما للثورة التي ضحى من أجلها أبي، ولأجلِها مازال أخي مُغيَّبًا في السجون.

أجبتُها وقد اختلجت المشاعر بداخلي:

- نعـم، أعلم أنـكِ فتـاة قوية ومُخلِصـة لمـا تؤمنين به، لدرجـة تصعب على كثير مـن الناس، ولكني صادقٌ فـي رغبتـي، كمـا أن نجاح الثـورة مرهـون بمواصلة الحياة ومقاومة الموت واليأس.

تبسَّم وجهها وقالت بلهجة حانية:

- انـت تُذكِّرنـي بأخـي، كان مثلـك يُحِـب الحياة، أتذكـر حيـن كنـا صغيريـن كان يعشـق كـرة القـدم، يحـاول إجـادة لعبهـا دون فائـدة، حتى إنه

كان يتخلف عن الذهاب لمدرسته من أجل حضور مباراة في ملعب المدينة، وحين كان يعنفه أبي، يرد بصوتٍ واثق: المجد والخلود للاعبي كرة القدم وليس لأحد سواهم في المدينة، ورغم ذلك سوف أحصل على الشهادة وألتحِق بالجامعة كما تُحِب.

وتصمت "رقية"، وتنظر لي وملامح الأسى تخضب وجهها، ثم تستطرد:

- كان يتحدث كحكيم صغير يُدرِك لُبّ الحياة التي نعيشها، ورغم ذلك لم يلتزم بواقعنا المرير فتغيرت وجهته وقناعته في الجامعة إلى أن نزعوه فجرًا من بيننا، حينها قالوا بكلمات مقتضبة وهم يزيحون أبي للخلف، إنه سيمكث عندهم لساعات، ثم يعيدوه لأنه شاب صالح يُحِب وطنه، ولكنه يتفوه أحيانًا بكلمات لا داعي لها. حينها أوشك أبي أن يُقسِم لهم بأن أخي لن يتحدث ثانية بما يُزعِجهم، لن يتحدث عن أحلام الحرية والعدل والمساواة، بل سيزعم أن أهل الثقة أفضل دومًا من أهل الكفاءة، وأن لاعب الكرة أهم من العالم ومن الصانع ومن الفنان. كان يود أن يقول كل ذلك، ولكنهم كانوا قد غادروا، ولم يعد أخي مرة أخرى.

وساد صمتٌ رهيف بيننا، وخشيت أن تحبس الكلمات في فمي، فتلك الفتاة دائمًا ما تُبهِرني بمنطقها حتى أذعنت

لرأيها في النهاية، قلت لها:

- إذن ماذا علينا القيام به الآن؟

ردت بصوتٍ جاد:

- أنت تعلم أن الحي الشرقي بات محاصرًا، وأن "كرام" مازال يقبع هو وأسرته هناك، علينا أن نُخرجه بأي طريقة.

قلت لها:

- "كرام".. كيف لنا أن ننقذه، و"مراد" قد حاد عن الطريق ولا يمكننا طلب مساعدته؟! سأسعى للوصول إليه واستضافته هو وأسرته في بيتي.

ودعتها ومشاعر متضاربة تختلج في نفسي، وانفجر في باطني صوتٌ كالرعد:

- **الثورة تفقد أبناءها، والحالمون بغدٍ أفضل يدفعون الثمن غاليًا.**

* * *

(23)

أنا الآن وحيدٌ في منزلٍ يتداعى بعد أن فقد الأم الحانية والأب الثائر، أجترُّ الذكريات الحالمة، زخم البداية وأحلامها ونقاءها، وكيف كاد النصر يكون حليفنا، ثم أنتبه إلى قهر الواقع وجراحه، وكيف انتهت الثورة إلى ما انتهت إليه!

"مراد" الثائر تحول إلى زعيم ميليشيا طائفية، و"كرام" الشاعر لم أتمكن من الوصول إليه وإنقاذه وأسرته، ولكنه تمكن من الخروج من الحي المُحاصَر بعد أن فقد ابنتيه وزوجته ووصل إلى منزلي وحيدًا منهارًا، و"رقية" تمكنت السلطة من اقتناصها وألقت القبض عليها وبات مصيرها مجهولاً.. تُرى، هل التقت أخاها في أحد الأقبية الرطبة المظلمة؟

هل بات حُلم الحرية لها ولنا جميعًا بعيد المنال، بعد أن اختلط كل شيء ولم يعد إلا الألم والدم ومجزرة توشك أن تقع؟

هل أصمتُ وأظِل ساكنًا أخشى على حياتي، بينما هناك مدنيون أبرياء يتعرضون للقتل؟ وماذا يمكنني أن أفعل؟

توقف القلم في يدي أمام هذا السؤال الذي شعرتُ به ينهش في روحي المُعذّبة، ثم انتفض قلبي عن خاطرٍ برز

أمامي حين أبصرتُ الكاميرا التي اقتنيتُها يومًا ، عندما كنت أظن أني سوف أكون صحافيًا ناجحًا يبحث عن الحقيقة ، ويُعبِّر عن هموم أبناء وطنه.

وتردد صوتٌ بداخلي قائلاً:

- إذا لم تستطع أن تكون ما تمنيته فالآن يجب عليك أن تقوم بما يمليه عليك ضميرك.. ليس بمقدورك منع تلك الجرائم الوشيكة ، ولكن يمكنك التسلل إلى الحي وتصوير ما يجري ، فإنها جرائم لا تسقط بمضي الزمن ، ويجب أن يأتي يوم يقف فيه أولئك المجرمون أمام العدالة لتقتص منهم.

أشعرُ بأن الوقت بدأ يداهمني ، بينما أصوات الاشتباكات تعود لترتفع من جديد.. أنزع ورقة من الدفتر ، وأكتب كلمات قصيرة إلى "كرام" المنزوي في إحدى غرف البيت تئن روحه بالجراح الغائرة:

- "صديقي "كرام" ، أترك لك تلك الرسالة ريثما تخرج من غرفتك ، فأنا لا أود اقتحام خلوتك الآن ، ولكن فقط أخبرك بأني ذهبت إلى الحي الشرقي؛ ذلك الذي تجسدت فيه أحلام الثورة وانكساراتها ، بل وخياناتها. أعلم ما يمثله لك المكان الذي فقدت فيه أحبابك ، على كل حال سأفعل ما بوسعي لتوثيق تلك الجرائم ، عسى أن تساهم في إدانة المجرمين عند محاكمتهم ، وعليك ألا تشك في أن مثل هذا

اليوم سيأتي، لأنه إذا لم نؤمن بذلك فإنه لا معنى حينها للعدالة أو للحياة. أخيرًا أترك لك المنزل، وهذا الدفتر الذي يخصني، أمانة بين يديك، وإذا لم أعد فكلاهما ملكٌ لك، فإنه كما تعلم لم يعد لي أسرة بعد أن فقدت كل شيء في تلك المأساة المروعة... "إلياس".

* * *

(24)

أغلق "وليد" الدفتر، شعر بارتجافة تسري في بدنه كله، صور كانت تمرُق مشوشة في خياله بدت الآن أكثر وضوحًا.

فكر في "مريم"، فتردد في عقله ما جرى بعد اللقاء الأخير حين أظلمت الدنيا في وجهه وكاد يوقن أن يديه مخضبتان بدماء والديها والأحرار من أبناء وطنها.. لحظتها، فكر أن يتخلص من حياته بنفسه أو يطلب منها أن تخبر النازحين في المخيم فيقتصوا منه جراء ما حاق بهم من آلام كان هو مشتركًا في صناعتها، ولكنه تذكر ما قالته "مريم"، بينما دمعات شفافة تتسلل من عينيها، لقد ذَكَّرته بأن المتطرفين أيضًا يدّعون انتماءه إليهم ويمتلكون أدلتهم أيضًا مثلهم مثل ممثلي السلطة، ولكن "كرام" رفيقه في الخيمة أخبرها بسِرٍّ آخر قبل أن يهاجر لاحقًا بطابور اللاجئين إلى أوربا، لقد قال لها إنه يعرف "وليد" جيدًا منذ كان يعيش هناك في المدينة التي اشتعلت بالثورة طلبًا للحرية، وإنه لم يكن أبدًا من الأشرار المتطرفين والقتلة، وإنه لا يستطيع أن يخبره أو يخبرها بأكثر من ذلك؛ حفاظًا على سلامته، ولكنه يثق بأن "وليد" سوف يصل إلى حقيقة هُويته بنفسه،

وتُدرِك روحه السلام الذي أضناه البحث عنه منذ وصوله إلى مخيم النزوح.

عند تلك اللحظة تناهى إلى سمع "وليد" أصوات الأطفال تضج في الخارج، فغادر الخيمة ليبصر السماء وقد غدت صافية شديدة الزُرقة، بعد رحيل الغيوم الرمادية عنها، بينما الاطفال مازالوا يركضون بين الخيام، و"مريم" تلهو معهم وكأنها تستمد من أرواحهم طاقة أمل تعينها على مواصلة الحياة القاسية التي يرزح تحتها أهل المخيم. حين أبصره الأطفال التفوا جميعًا حوله، كانوا يودّون مداعبته، بينما "مريم" تنظر في عينيه مباشرة وتقول بصوتٍ حالم:

- أراك اليوم أكثر بهجة.. هل عثرت على هُويتك التي يتنازعها الجميع الآن.

طاف "وليد" بعينيه مُستعرِضًا خيام النزوح الحزينة والصامدة في وجه كل العذابات التي حاقت بأهلها وساكنيها:

"سعدون" الذي نجا من الهلاك في المدينة فقتله الوباء في المخيم البائس.

"كرام" ومأساته التي كان شاهدًا عليها دون أن يدري.

"أُم نور" التي لم يتحمل جسدها الهزيل البرد القارس ففارقت الحياة تاركة ابنتها الوحيدة تعاني من واقعٍ مؤلم ومستقبلٍ غامض.

"مريم" التي أحبها من كل قلبه وشاركته آلام الفقد وهموم البحث عن الهُوية الضائعة.

كل تلك الأفكار طافت برأسه في تلك اللحظة التي شعر فيها بروحه الحقيقية تتجلّى وتتجسد أمامه في صورة الصغار الذين يلتفون حوله، فقال وقد نظر في عيني "مريم" واحتضنت يداه يدها:

- سوف أريك الآن شيئًا كنت قد أعددته لأهديه لأطفال النازحين ولم يسعفني الوقت لأقدمه لهم قبل الآن. ثم استطرد بقوله: انتظروني، لن أغيب عنكم طويلاً.

وركض "وليد" مختفيًا عن أعينهم، ليعود إليهم بعد دقائق وهو يقود شاحنة حوّل صندوقها الخلفي إلى مسبح مياه متنقل. توقف أمام "مريم" وهو يصيح:

- ها هي ذي أمنيتك قد تحققت يا مازن.

لمعت عينا الطفل وأشرق وجهه بابتسامة عذبة، وسارع باعتلاء الشاحنة وإلقاء جسده في المسبح، وتبعه الأطفال الذين كانوا معه، وآخرون خرجوا يركضون من الخيام ينادي بعضهم بعضًا، تغمرهم السعادة البريئة، بينما أهلوهم يرقبون ما يحدث بقلوبٍ شاكرة وعيون ممتنة.

* * *

المؤلف

طه أحمد علي

وشهرته (**طه الشريف**)

ـ ولد في قرية الأشراف البحرية بمحافظة قنا عام ١٩٨٠

ـ حصل علي بكالوريوس الإعلام جامعة القاهرة عام ٢٠٠٨

ـ يقيم بمحافظة البحر الأحمر، حيث يعمل باحدى شركات البترول.

ـ فازت روايته "**البحث عن جناحي طائر**" بجائزة بهاء طاهر للآداب لأدباء الصعيد.

ـ عضو مجلس إدارة نادي أدب الغردقة

ـ عضو اتحاد كتاب مصر

صدر له:

"**الرحيل وأحلام العودة**" رواية، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٧م.

"**عبر الأنفاق**" رواية، مركز الحضارة العربية، ٢٠١٦م.

"**البحث عن جناحى طائر**" رواية، مركز الحضارة العربية، ٢٠١٨م.

"**بطاقة هوية لنازح مجهول**" رواية، مركز الحضارة العربية، ٢٠٢٣م.

ملتقى الثقافة والفكر والإبداع
الحضارة العربية
للتنمية الثقافية

طه الشريف

بطاقة هوية.. لنازح مجهول

مركز الحضارة العربية

يشعر بالدفء يتسلل إلي جسده النحيل، يفتح عينه فتصطدم بسقف الخيمة، يلتفت بجانبه فيبصرهما يصارعان في نوم مضطرب، يأخذ نفس عميق ثم يشرع في الخروج متسللاً من الخيمة التي يشاركه فيها رجلان أحدهما يُدعي سعدون والآخر كرام.

كان سعدون فارع الطول مستدير الوجه كث اللحية والشارب، بينما كرام متوسط الطول يميل جسده إلي البدانه بعض الشئ، ورغم الحزن العميق الذي يغلف ملامحه إلا أن في عينيه نظرة حانية لمحها وليد من أول وهلة حين انضم إليهما في الخيمة.

كان سعدون وكرام فيما مضي يعيشان في إحدي الحارات الفقيرة، الأول فقد زوجته في إحدي الغارات بينما كان يحاول أن يجلب لها طعام من مكان ناء غرب المدينة، والثاني فقد زوجته وابنتيه وهو يحاول أن ينجو بهم محاولاً مغادرة الحي بعد أن حولت القذائف حياتهم إلي جحيم.

والآن لم يبقَ لهما سوى ذكريات مغموسة بالحنين والألم يجترانها أمامه كل ليلة، فتجتاحه مشاعر متناقضة وتعاوده الأسئلة التي لا جواب لها:

أيمكن ان أكون من أولئك الذين حولوا حياة هؤلاء المساكين إلي جحيم؟ أحاول أن أفهم حقيقة ما يجري، من كان يقاتل من ولماذا؟

هل أظل هكذا دون ماضٍ أو حاضر أو أمل في مستقبل؟

أدرك أنهما يتوجسان مني خيفة ربما ظنوا أني مدسوسٌ عليهما.

هل أخطأتُ برضوخي والقدوم إلى ذلك المخيم لأمارس حياتي كبقية الناس وأبحث بينهم عن أي خيط يقودني لذلك الماضي المجهول؟